للشيخ الإمام سلطان العلماء

عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي الشافعي

تحقيق: د. مصطفى محمد حسين الذهبي

تقديم: أحمد زكي يماني

مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي

2009-08-16
www.alukah.net

مجاز القرآن

للشيخ الإمام سلطان العلماء
عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام
السلمي الدمشقي الشافعي
«٥٧٧ - ٦٦٠ هـ»

تحقيق
الدكتور مصطفى محمد حسين الذهبي

تقديم
أحمد زكي يماني

مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي
لندن
١٤١٩هـ/ ١٩٩٩ م

مجاز القرآن

سلسلة الفرقان للمخطوطات

المنشورة رقم: ٦٠

منشورات الفرقان: رقم ٣٧
سلسلة المخطوطات المنشورة: رقم ٦

مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي

Al-Furqan Islamic Heritage Foundation
Eagle House
High Street
Wimbledon
London
SW19 5EF

© Al-Furqan Islamic Heritage Foundation, 1999
All rights reserved. No part of this book may be reproduced or translated in any form, by print, photoprint, microfilm, or any other means without written permission from the publisher

(Al-Furqan Cataloguing in Publication Data: (بيانات الفرقان للفهرسة أثناء النشر:

ابن عبد السلام، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي (٥٧٧ - ٦٦٠ هـ)

مجاز القرآن / تأليف عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي (٥٧٧ - ٦٦٠هـ) ؛ تحقيق مصطفى محمد حسين الذهبي ؛ تقديم أحمد زكي يماني.- لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤١٩ هـ= ١٩٩٩م.

٥٠+ ٥٥٧ص؛ ٢٤سم.- (منشورات الفرقان؛ ٣٧. سلسلة الفرقان للمخطوطات المنشورة؛ رقم ٦).

1. القرآن-بلاغة. 2. القرآن -مجاز. أ. الذهبي، مصطفى محمد حسين (تحقيق). ب. يماني، أحمد زكي (تقديم). جـ. مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي- لندن. د. العنوان. هـ. السلسلة. و. السلسلة الفرعية.

ISBN 1 873992 37 8

Published by Al-Furqan Islamic Heritage Foundation, London, UK
Eagle House, High Street, Wimbledon, London SW19 5EF

المؤلف

العز بن عبد السلام (٥٧٧-٦٦٠هـ) علم من أعلام الإسلام، وواحد من مفكري القرن السابع الهجري، وأحد سلاطين العلماء الذين حاربوا الظلم والطغيان وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وغيروه، وهانت عليهم أرواحهم في سبيل نصرة دين الله وإعزازه.

وقد اشتهر العز عند الباحثين بذلك، كما اشتهر بأنه فقيه مجتهد. وكثير من مؤلفات الإمام العز بن عبد السلام لم يخرج إلى النور، ومنها هذا الكتاب وعنوانه: (مجاز القرآن)، والذي قام بتحقيقه الدكتور مصطفى الذهبي، وقدم في بدايته ترجمة موجزة عن حياة (سلطان العلماء) تتناول نسبه ومولده وأعماله ومواقفه وشخصيته العلمية ومؤلفاته، وكلمة قصيرة عن قضية (المجاز) في القرآن بين المؤيدين والمعارضين. وفي كتاب مجاز القرآن، أبرز المؤلف ما اشتمل عليه كتاب الله العزيز من فنون البيان والمعاني، وحقق ما فيه من إعجاز لم يستطع العرب الفصحاء أن يأتوا بمثله رغم ما كانوا يجيدونه من فنون القول.

كما ألحق ابن عبد السلام في آخر الكتاب خاتمة ذكر فيها نبذا من مقاصد الكتاب العزيز.

المحقق

الدكتور مصطفى محمد حسين الذهبي من مصر، وهو من مواليد (الطائف)، المملكة العربية السعودية سنة ١٩٤٩، حيث كان يعمل والده مدرسا (بدار التوحيد) لعلوم التفسير والحديث، نشأ بالقاهرة، وحصل على بكالوريوس الطب والجراحة بجامعة القاهرة سنة ١٩٧٣م وماجستير الأمراض الصدرية سنة ١٩٧٧م، ودكتوراه الأمراض الصدرية جامعة القاهرة ١٩٨١م، وارتقى في المناصب العلمية حتى صار أستاذا للأمراض الصدرية ورئيس قسم الحساسية بكلية الطب/ جامعة القاهرة.

ويعمل أيضا استشاري أمراض الصدر والحساسية بكبرى مستشفيات القاهرة، وله مشاركة في كثير من الأبحاث العلمية، وزيارات إلى ألمانيا وهولندا وفرنسا والمملكة العربية السعودية.

وإلى جانب تخصصه الطبي، قام الدكتور مصطفى الذهبي بمجهود علمي مشهود في تحقيق كثير من المخطوطات العربية والإسلامية، ومن بين الكتب التي قام بتحقيقها:

١- صحيح مسلم ٢- سنن ابن ماجة ٣-سنن الترمذي
٤- إيثار الترغيب والتشويق إلى المساجد الثلاثة والبيت العتيق
٥- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام/ للفاسي
٦- الزهور المقتطفة في تاريخ مكة المشرفة/ للفاسي
٧- الورع/ للإمام أحمد بن حنبل.
٨- الدر النثير تلخيص نهاية بن الأثير/ للسيوطي
٩- الواضح المبين في ذكر من استشهد من المحبين/ للحافظ مُغلطاي.
١٠- الجواهر البهية في شرح الأربعين النووية
١١- المنتخب الجليل في تخجيل من حرف الإنجيل
١٢- مجاز القرآن/ للعز بن عبد السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم أحمد زكي يماني

رئيس مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي

الحمد لله الذي أنزل الفرقان ليكون للعالمين نذيرا، والصلاة والسلام على النبي العربي الأمي الذي منحه الله فصاحة اللسان، وآتاه جوامع الكلم وحسن البيان. وبعد:

فعندما وفقنا الله بإنشاء مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي في لندن، اخترنا لها اسم «الفرقان» وهو من أهم أسماء القرآن. وعندما حددنا حقول التراث التي نركز عليها جُلَّ اهتماماتنا، كانت علوم القرآن في مقدمتها. ورغم أن القرآن قد أُنزل بلسان عربي مبين، وكان المجاز سمة من سمات البلاغة في لغة العرب، إلا أن الخلاف حول المجاز قد اشتد واحتدم، عندما تعلق الأمر بآيات الكتاب الكريم، وأصبح المجاز في القرآن من القضايا الشائكة التي يتعرض لها من تناولها بالتكفير أو التحقير.

ولقد أحسن الأستاذ الدكتور مصطفى محمد حسين الذهبي عملا حين حقّق لسلطان العلماء عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام كتابه القيم عن «مجاز القرآن» وهو إحدى روائع ذلك العالم الجليل الذي استحق أن يكون للعلماء سلطانا. وسارعت مؤسسة الفرقان إلى نشر هذا السفر الهام في موضوع نال الكثير من الاهتمام. سائلين المولى أن ينفع به طلاب العلم، وأن يجعله لسلطان العلماء ومحقق كتابه صدقة جارية لعلم يُنتفع به، ونسأله أن يدخلنا معهما بفضله لنكون في زمرة المأجورين، ففضله واسع عظيم، وهو أكرم الأكرمين.

أحمد زكي يماني

مارس ١٩٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحابته أجمعين :

وبعد . . . ففى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى، بدأت حركة التدوين والتأليف فى العلوم والفنون العربية والإسلامية، وأخذت تنمو وتزداد كلما انصرم قرن وأتى آخر. ومن الحقائق البارزة فى هذا المجال أن التأليف فى العلوم «اللسانية» جملة كان من باكورة البحث عند العلماء الرواد من المسلمين، فالخليل بن أحمد[١] يضع كتاب «العين» فى جمع مفردات اللغة وبيان معانيها، ويتطرق إلى التراكيب أحيانًا، كما وضع علمى العروض والقافية، ثم يأتى سيبويه[٢] إمام النحاة ويضع «الكتاب» فى النحو والصرف وبعض القراءات، والفراء[٣] وقطرب وأبو عبيدة[٤] يضع كل منهم مصنفًا فى الدراسات القرآنية، الفراء باسم «معانى القرآن» وقطرب وأبو عبيدة باسم «مجاز القرآن».

ثم تتابعت الجهود فى البحث والتدوين والتأليف، وأخذت تضيف وتضيف، وتناولت علوم الأدب والنقد والبلاغة والبيان، وواكبتها بحوث أخرى جادة فى الفقه وأصوله،

---

(١) الخليل بن أحمد بن عمرو بن نعيم الفراهيدى الأزدى، العالم الجليل، توفى سنة ١٧٠ هـ (انظر الزركلى ٢/ ٣٦٣).

(٢) هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثى، إمام اللغويين والنحويين، توفى سنة ١٨٠ هـ (الزركلى ٢/ ٢٥٢) .

(٣) هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسلمى، توفى سنة ٢٠٧ هـ (الزركلى ٩/ ١٧٨) .

(٤) هو أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمى، عالم مشهور فى اللغة والأدب، توفى سنة ٢١٠ هـ (الزركلى ٨/ ١٩١) .

والتفسير والحديث والعقائد وعلم الكلام.

وكان للفتوحات الإسلامية، واحتكاك الثقافة والعلوم العربية والإسلامية بالثقافات والعلوم الأجنبية دور بارز فى مجال البحث والتفكير، وبدأت ظاهرة «التزاوج الفكرى» تأخذ مكانها من الظهور، وقد غذت هذه الظاهرة ظاهرة أخرى كان لها وجود من قبل، وهى ظاهرة الخلاف فى كثير من الحقائق والأصول والفروع، لا يخلو من ذلك مجال فكرى واحد حتى بين من ينتمون إلى مذهب واحد.

وكان مما اختلفت وجهات النظر حوله قضية «المجاز» وقد بدأ الخلاف حولها مبكرًا. ومضمون الخلاف حولها كان يدور على الشكل الآتى:

هل المجاز واقع فى اللغة العربية أم غير واقع؟ وإذا كان واقعًا فيها فهل يجوز وقوعه فى القرآن الكريم وفى أحاديث النبى ﷺ؟

اختلفت الأنظار حول هذه القضية على ثلاث شعب:

* فريق يقول بوقوعه فى اللغة وفى القرآن الكريم وفى الأحاديث الشريفة.

* وفريق يرى أنه غير واقع لا فى اللغة ولا فى القرآن ولا فى الأحاديث.

* وآخرون يذهبون إلى نفيه عن القرآن وعن الأحاديث، ولم يتحمسوا لنفيه عن اللغة.

والقول بنفيه عن اللغة والقرآن والأحاديث جملة منسوب للأستاذ أبى إسحاق الإسفرائينى وأبى على الفارسى[1] من العلماء الرواد.

أما نفيه عن القرآن خاصة فمنسوب إلى ابن القاص الشافعى، وابن خُوَيْز مِنْداذ المالكى، وأبى داود الظاهرى إمام مذهب الظاهرية وأتباعه.

أما عن جَوَاز وقوعه فى اللغة وفى القرآن وفى الحديث الشريف فلا يُنْسب إلى «أفراد» وإنما هو مذهب الجمهور، أو مذهب العامة والكثرة الكاثرة التى لا تحصى عددًا من علماء الأمة فى كل فروع البحث والتأليف.

---

(١) هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان الفسوى، توفى سنة ٣٧٧ هـ (الزركلى ٢/١٩٣).

وقد تبارى الفـريقان: مجوزو المجاز ومـانعوه، يدفع كل منهما مـا يراه للآخر، فوضع المانعون مصنفات فى إنكار المجاز، ورد عليهم بعض المجـوِّزين، فوضعوا مصنفات فى الرد على منكرى المجاز.

ونتيجة لتلك الاتجاهات والمواقف، كان لابد أن تعـمر مكتبة التراث الإسلامى بعدد من الآثار تؤرخ لها وتنقل إلينا وقائعها، وهذا ثبت لما تمكنت من الوقوف عليه:

١ ـ كتاب الردّ علي من نفى المجاز من القرآن ـ للحسن بن جعفر الرحى.

٢ ـ كتاب فى نفى المجاز ـ لأبى الحكم بن سعيد البلوطى توفى سنة ٣٥٥ هـ.

٣ ـ تلخيص البيان فى مجازات القرآن - للشريف الرضى، توفى سنة ٤٠٦ هـ .

٤ ـ مجاز القرآن، للعز بن عبد السلام، توفى سنة ٦٦٠ هـ .

٥ ـ كتاب غفلة المجتاز فى علم الحقيقة والمجاز ـ للطوفى الصرصرى البغدادى توفى سنة ٦٧١ هـ.

٦ ـ كتاب الإيمان ـ لابن تيمية توفى سنة ٧٢٨ هـ.

٧ ـ الرسالة المدنية فى تحقيق المجاز والحقيقة فى صفات الله ـ لابن تيمية أيضًا.

٨ ـ كتاب الإيجاز فى دلالة المجاز ـ لعبد الحكيم بن أبى الحسن بن عبد الملك بن يحيى المراكشى توفى سنة ٧٢٣ هـ.

٩ ـ كـتاب الصـواعق المرسلة على الجـهـميـة والمعطّلة ـ لابن قـيم الجـوزية توفى سنة ٧٥١هـ.

١٠ ـ كتاب الإيجاز فى المجاز لابن القيم نفسه ـ ذكره السيوطى فى الإتقان ١ / ٧٠ .

١١ ـ الفوائد المشوق - وهو مطبوع وينسب خطأ لابن قيم الجوزية .

١٢ ـ مجاز الفرسان إلى مجاز القرآن، للسيوطى، توفى سنة ٩١١ هـ .

١٣ ـ كتاب «مـنع جواز المجاز فى المنزّل والإعجـاز» للشيخ محمـد الأمين الشنقيطى، رحمه الله.

١٤ - المجاز فى اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع - للعلامة الدكتور عبد العظيم المطعنى، وهو كتاب فريد فى نوعه ، بذل فيه مؤلفه جهدًا مشكورًا يدل على رسوخ قدمه فى هذا المجال، حاول فيه أن يضيق دائرة الخلاف بين الفريقين، فكان فارس حلبتها، وابن بجدتها، فجزاه الله خير الجزاء.

ومنشأ الخلاف ـ فيما يرجح ـ هو البحث فى أسماء الله وصفاته فقد وردت فى القرآن الكريم نصوص يوهم ظاهرها المشابهة بالحوادث مثل إثبات اليد لله سبحانه والوجه والعين، والمعية والقرب، والمجىء والاستواء، وفى الحديث الشريف وردت نسبة القدم والأصبع والصورة والنزول والضحك والكف لله سبحانه مع أن فى القرآن نصًا عاصمًا من اعتقاد التشبيه والتجسيم وأية مماثلة؛ وهو قوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شىء**﴾.

ففريق من العلماء أجرى هذه الأمور على ظواهرها، وأبقاها على مدلولاتها؛ لأن الله وصف بها نفسه، وكذلك رسوله، ولن يصف الله أعلم بالله من الله، ورسوله لا ينطق عن الهوى، وهو أعرف الخلق بالله، وأعلمهم بما يجب له من كمالات، وما ينزه عنه من نقائص.

أجل، أقروها على ما هى عليه من غير تأويل ولا تمثيل ولا تعطيل، وفريق توقف ولم يقل فى ذلك شيئًا، وهذان المذهبان يعرفان بأنهما مذهب السلف.

ووقف آخرون موقفًا آخر فأوّلوا كل ما أوهم ظاهره تمثيلاً أو تجسيمًا، فأولوا اليد بالقدرة والقوة والنعمة، والأصبع بالأثر، والوجه بالذات، والاستواء على العرش بالهيمنة، والمجىء بمجىء الأمر، والنزول والقرب والمعية: باستجابة الدعاء ومنح النفحات وقرب العلم ومعية العلم والنصر والتأييد، ولكل من الفريقين أدلة يعتمد عليها.

وهكذا أخذ المجاز ينمو ويزدهر وتعترك حوله الأذهان فى ظلال العقيدة والتوحيد، وأخذ مثبتوه ومنكروه يتبارون حوله، وجميعهم كان يقصد تنزيه الله ـ سبحانه ـ عن الحوادث وإن اختلف المنهج من فريق إلى فريق، فمن أبقى النصوص على ظواهرها ومن أوّلها وصرفها سواءٌ فى نزاهة القصد ونبل الغاية، بيد أن منكريه رموا مجوِّزيه ـ وبخاصة

فى الأسماء والصفات ـ بأنهم معطلون حيث نفوا ما أثبته الله لنفسه، وما وصفه به رسوله، ولكل فعل رد فعل؛ فوجه المجوزون للمانعين تهمة التشبيه والتجسيم، وكل فريق كان يعتقد أنه على صواب.

والمتابع لسير النزاع بين الفريقين يرى أن الخلاف بينهما كان هادئًا طوال القرون الأولى حتى النصف الثانى من القرن السابع والربع الأول من القرن الثامن، حين اتجه الخلاف إلى الشدة والعنف، ولكن من جانب منكريه وحدهم دون مجوِّزيه؛ فقد برز على الساحة الإمام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية «٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ» وقد وهبه الله ذاكرة واعية، وقلبًا ذكيًا، ولسانًا فصيحًا، وقلمًا جريئًا، وتبنى مذهب السلف من حيث الجملة، وتصدى لأقاويل كثير من الفرق ولم يترك مجالاً من مجالات الفكر الإسلامى إلا وكان له فيه قصب السبق، وكان مما أدلى فيه بدلوه موضوع المجاز فاختار مذهب المنع، وكتب فصلاً ضافيًا فى كتابه: «الإيمان» ينكر فيه المجاز ويحشد بين يدى إنكاره ما شاء أن يحشد من أدلة نقلية وعقلية وواقعية، وشدد النكير على مجوِّزيه ورماهم بالكذب حينًا، وبالجهل حينًا آخر، ومن يقرأ كتابه «الإيمان» يجد نفسه أمام صخرة عاتية، لا تعمل فيها المعاول إذا أريد النيل منها.

وكان السبب المباشر لهذه الحملة القاسية التى حملها على المجاز ومجوِّزيه أن فريقًا من العلماء قال: إن الإيمان هو التصديق القلبى... أما الأعمال فلا تدخل فى الإيمان حقيقة، وإنما تدخل فيه مجازًا.

والإمام ابن تيمية يرى أن الإيمان هو التصديق والعمل معًا، ولكى يصح له ما أراد أجهد نفسه وعقله فى إنكار المجاز على النحو الذى وصفناه.

ثم حمل لواء المنع من بعده تلميذه ابن القيم، فكان أقسى وأعنف من شيخه وكتابه الذى ضمنه الرد على مجوزى المجاز يشهد عنوانه على ما نقول، فقد سمَّاه: «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» كما سمى المجاز بـ «الطاغوت» وبذل طاقة ذهنية هائلة ليتوصل إلى إنكار المجاز من خلال اثنين وخمسين وجهًا سطَّرها فى كتابه المشار إليه.

وتوارثت الأجيال هذا الخلاف، وما يزال يتردد فى معـاهد العلم وجامعاته، ويتخذ من المنع الآن كثير من المسلمين مذهبًا وعقيدة بفضل ما كتبه الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وقد ساعـد على هذا ما للإمام ابن تيمـية وتلميذه ابن القيم من غـزارة فى النتاج العلمى، وشهرة فى البيئات الإسلاميـة، ثم انتماؤهما إلى ما عرف بمذهب السلف ـ رضى الله عنهم أجمعين.

ولكن إذا تجاوزنا كلاً من ابن تـيمية وتلميـذه، واتجهنا صوب الجمهـور من علماء الأمة وأعلامها وصانعى حضارتها، ورائدى نهضتها العلمـية والفكرية والثقافية والتشريعية، فإننا نرى شيـئًا آخر مخـتلفًا جدًا عـما أبداه الإمام ابن تيـمية ومن قبـله ومن بعده من منكرى المجـاز، فالنحـاة واللغويون، والأدباء والـنقاد، والأعـجازيون والبـلاغيـون، والمفسـرون والمحدثون، والأصوليون والفـقهاء كل هؤلاء لهم مسلك آخر، ومنهج آخـر أطبقوا عليه، وهو العـمل بالمجاز كلٌّ فى دائرة اخـتصاصـه، تشهـد بذلك مصنفـاتهم وآثارهم العلمـية الصحيحة النسبة إليهم.

فها هو ذا ابـن قتيبة فى كـتابه «تأويل مشكل القـرآن» يدافع بغيرة وحماس عـن أهمية المجاز، فيقول: «ولو كان المجاز كذبًا، وكل فـعل ينسب إلى غير الحيوان باطلاً ـ كان أكثر كلامنا فاسدًا..».

وينتقـد الزركشى أولئلـك المعارضين الذين ينفـون المجاز، ويصرِّح قـائلاً: «... وهذا باطل، ولو وجب خلو القرآن من المجاز، لوجب خلوّه من التوكيد والحذف وتثنية القصص وغيره، ولو سقط المجاز من القرآن سقط شطر الحسن».

وممن ناقش هذه القضية السيوطى الذى تبنَّى هذا الاتجاه مكرِّرًا كلمات الزركشى، مضيفًا إليها قوله: «وهذه شبهة باطلة، ولو سـقط المجاز من القرآن، سقط منه شطر الحسن، فقد اتفق البلغـاء على أنَّ المجاز أبلغ من الحـقيقـة، ولو وجب خلو القـرآن من المجاز، وجب خلوه من الحذف والتـوكيد وتثـنية القصص وغـيرها...»، وقد عـالج السيوطى مـوضوع المجاز وأنواعه بصورة موسعة فى كتابه «الإتقان».

ترجمة سلطان العلماء

عصر سلطان العلماء

عاش الشيخ عز الدين بن عبد السلام فى الفترة من خمسينات القرن السادس الهجرى إلى ستينات القرن السابع. إذ ولد بدمشق عام ٥٧٧ هـ، وعاش بها حتى هاجر إلى مصر عام ٦٣٩ هـ، وبها توفى عام ٦٦٠ هـ.

وإن إلقاء نظرة سريعة فاحصة على النواحى «السياسية والاجتماعية والعقائدية والفكرية» لعصر سلطان العلماء، من الأهمية بمكان، حتى يتحقق لنا وضوح الرؤية فى فهم شخصية هذا العالم الدينى الكبير، وتحليل مواقفه الحاسمة الجريئة أمام جميع التحديات التى قابلته وهو يعمل جاهدًا على إعلاء كلمة الحق، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، محاربًا كل بدعة وضلالة.

الناحية السياسية:

تميز عصر سلطان العلماء بكثرة الأحداث السياسية والحروب الطاحنة فى الداخل والخارج. لقد شهد عصر عز الدين بن عبد السلام مواصلة قوى التحدى الخارجية ـ الغزو المسلح لبلاد المسلمين فى الشام ومصر ـ وتمثلت هذه التحديات فى الحملات الصليبية وغزوات التتار.

والحركة الصليبية تعتبر أولى موجات الاستعمار الأوربى التى جاءت متسترة وراء صليب المسيح وهى أبعد ما تكون عن دعوة هذا المقام العظيم. أما غزوات التتار فقد ابتليت بها بلاد المسلمين حيث استطاع التتار تحطيم الخلافة الإسلامية فى بغداد عام ٦٥٦ هـ ومواصلة الغزو إلى الشام ومصر حاملين معهم الخراب والدمار.

وأمام هذه التحديات الخارجية خاض المسلمون معارك طاحنة ضد أعداء الدين، وبذلوا النفس والنفيس قربانًا من أجل النصر، ويشهد التاريخ على الدور الذى قامت به مصر فى هذا الجهاد، فقد تحملت مسئوليات جسام ـ مادية وعسكرية وأدبية ـ فى رد هذه الغزوات.

وكان على سلطان العلماء وأمثاله واجب يقومون به أمام هذا العدو الذى يتربص

بالإسلام وبالمسلمين، فنجد للشيخ عز الدين بن عبد السلام مواقف حاسمة فى ميدان الجهاد، لعل من أهمها إعلان استنكاره لسلطان دمشق الصالح إسماعيل الذى تحالف مع الصليبيين ضد ابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر. وأكثر من هذا نجد الشيخ عز الدين يشترك اشتراكًا إيجابيًا فى الجهاد المسلح جنبًا إلى جنب مع جنوده المسلمين خاصة فى معارك دمياط ضد العدو الصليبى. ونجده أيضًا يحرض السلطان المظفر قطز على حرب التتار ويرشده ويشير معه حمية أمرائه ونخوة جنده حتى كتب الله للمسلمين النصر وهزموا التتار فى موقعتين فاصلتين، هما عين جالوت وبيسان عام ٦٥٨هـ.

أما فى الداخل فقد أدرك سلطان العلماء فترة الدولة الأيوبية التى تلى وفاة مؤسسها صلاح الدين الأيوبى، وشهد الصراع بين أفراد البيت الأيوبى خاصة بعد وفاة السلطان الكامل، ولم يلبث النزاع الذى دب بينهم أن أوقع الدولة الأيوبية فى حالة شديدة من الفوضى وعدم الاستقرار، فى الوقت الذى تعرضت فيه البلاد للغزو الخارجى، وكان من نتيجة اشتداد هذا الصراع بين أفراد البيت الأيوبى أن طلب بعضهم الاستعانة بقوى الصليبيين أعداء الدين كما سبق أن أشرنا.

وهكذا اكتوى المجتمع الإسلامى فى مصر والشام بنيران هذه الفتن السياسية، نتيجة شهوة الحقد والطمع التى سيطرت على أفراد البيت الأيوبى، بدلاً من الاتحاد والتضامن من أجل عزة الإسلام وحماية بلاد المسلمين.

وعاش الشيخ عز الدين وهو يرى كل هذا، فآلمه هذا الواقع وعمل جاهدًا على إصلاح الأحوال، وتوجه بالنصح والإرشاد إلى أولى الأمر، وتحمل فى سبيل ذلك متاعب كثيرة، فالشيخ عز الدين هو الذى نصح الملك الأشرف بالصلح مع أخيه الملك الكامل بمصر خاصة والوقت كان وقت هجوم التتار وهو فى مرض الموت، وانصاع السلطان لهذه اللفتة الصادقة المخلصة. والشيخ عز الدين هو الذى غادر دمشق عام ٦٣٩ هـ تاركًا إياها تئن تحت وطأة حكم الخائن الصالح إسماعيل الذى تحالف مع أعداء الدين ضد ابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب فى مصر، كما سبق أن ألمحنا، وكما سنفصله فيما بعد. ويهاجر الشيخ إلى القاهرة لكى يواصل من هناك أداء رسالته السامية، ووجد من سلطان مصر الصالح نجم

الدين أيوب كل احترام وتقدير.

الحالة الإجتماعية والعقائدية:

عاش الشيخ عز الدين بن عبد السلام فى مجتمع متعدد الأجناس، فقد كان المجتمع فى مصر والشام آنذاك يموج بكثير من الأجناس المختلفة، بل المتباينة فى الطباع والعادات والتقاليد، وفى فهم الحياة وألوان المعيشة. وتمثلت هذه الأجناس فى الترك، والعرب، والفرنج والتتار «الذين وقعوا فى الأسر، وأقاموا فى البلاد» والأرمن.

هؤلاء جميعًا وآخرون غيرهم، عاشوا فى كنف مجتمع واحد، مما ولَّدَ الصراع الاجتماعى وعدم الاستقرار، وكان لهذا أثر بالغ خطير فى الحياة السياسية والفكرية والقضائية حين ذاك.

ومن المنطقى أن مجتمعًا كهذا لابد أن يكون تركيبه الطبقى معقدًا، حيث تتعدد الطبقات على شكل سلم هرمى يتلو بعضها بعضًا، فمن طبقة متميزة تعيش فى ترف وبذخ متناهيين، إلى طبقة كادحة تعيش عيشة الكفاف أو دونه، ونستطيع أن نحدد أهم الطبقات فى ثلاث:

الطبقة الأولى: هى طبقة الأمراء وعلى رأسهم السلطان، وكان لها نصيب الأسد من النفوذ والجاه، إن لم يكن النصيب كله.

والطبقة الثانية: هى طبقة العلماء والفقهاء وكبار رجال الدين، وكان لهؤلاء نفوذ ضخم لدى السلاطين والجماهير، مستمد من منصبهم الدينى.

والطبقة الثالثة: هى طبقة جماهير الشعب من تجار وصناع وزراع، وهى الطبقة العاملة الكادحة التى تخضع أحيانًا كثيرة لظلم المكوس المختلفة.

وإن مجتمعًا متعدد الأجناس والطبقات كهذا الذى يعيش فى كنفه سلطان العلماء لابد أن تصاحبه أديان وعقائد متباينة، بل إن الدين الواحد كانت تتنازعه نحل ومذاهب عدة، وكان هذا من بواعث القلق والفتنة والاضطراب.

نعم.. كان هنالك المسلمون «أهل البلاد والكثرة الغالبة بطبيعة الحال» وأهل الذمة من اليهود والنصارى، والإسماعيلية وغيرهم من الشيعة.

وكان المسلمون فرقًا مختلفة من ناحيـة العقائد الدينية، ومن ثم تجلت الخلافات المذهبية واحتدمت المجـادلات والمناظرات، وشغل كثيـر من العلماء بالنظر فى العقائـد وغيرها من أمور الدين، والمناقشة فيها، وتعزيز الرأى الذى يذهبون إليه.

وانشغل المسلمون بهذه الخلافات المذهبية وكانوا يتعصبون ويتحزبون لهذا المذهب أو ذاك خاصة مـذهب الأشعرية، أو مذهب أهل الظاهر من الحـنابلة المتعصبين، وكـان الشيخ عز الدين بن عبـد السلام أشعـرىً العقيدة، ومن ثم واجـه فتنًا كثـيرة من الحنابلة المتعـصبين، واستطاع أن يدحض آراءَهم ويرد على مفترياتهم.

ومع شيوع هذه النزعة الدينيـة فى عصر سلطان العلماء ظهرت أقوى طريقـة صوفية فى زمنها وهى الطريقة «السهـروردية»، وإمامها الشيخ شهاب الدين السهـروردى، واستهدفت قلوب الناس، واسـتطاعت أن تستـميل قلب الشـيخ عز الدين أيضًـا حتى أنه بايع الـشيخ شهاب الدين وهو بدمشق، وظهرت أيضًا فى مصر الطريقـة الشاذلية، وصاحبها الشيخ أبو الحسن الشـاذلى، وقد التقى به ابن عبـد السلام وصاحـبه، وانتفع كل منهمـا بعلم الآخر ومعرفته.

الناحية العلمية والفكرية:

كان عـصر عز الدين زاخـرًا بالعلم والعلماء والنـتاج الكثيـر الضخم فى جمـيع العلوم الإسلامية أمـهاتها وفروعها، ولقـد كانت مصر والشام من مراكز العلم الكـبيرة فى العالم الإسلامى ثم زادت أهمـيتمها فى هذه النـاحية بعد زوال الخلافـة من بغداد سنة ٦٥٦ هـ، وقد كان هذا سببًا طبيعيًا لهجرة جمهرة العلماء، أو فرارهم من بغداد إليها وإلى دمشق، أو إلى غيـرهما من مدن مـصر والشام واستـقرارهم فيـها واتخاذها أوطانًا لهم تكون مـجال نشاطهم الفكرى وانتاجهم العلمى فى ضروبه العديدة المختلفة.

ومن ثم فقد تـعددت مراكز العلم فى مـصر والشام، وكان لكل مركـز من هذه المراكز جامع يفد إليه الكثيرون من طلاب العلم ورجاله، ومكتبته الضخمة التى تضم عيون التراث الإسلامى المجيد، فيتزود الراغبون فى المعارف والعلوم من المساجد والمكتبات الملحقة بها ما

يفيدهم فى دينهم ودنياهم.

ولا مراء أن الجامع الأزهر كان قمة هذه الجوامع وأهم موطن للعلم والمعرفة منذ نشأته، هذا بخلاف الجوامع الكثيرة فى القاهرة والإسكندرية وفى الشام، وبعد ذلك ظهرت مراكز أخرى للحياة العقلية والفكرية وهى المدارس والمكتبات العامة، وكان الفضل الكبير فى إنشاء هذه المدارس أو المراكز العلمية الهامة للسلطان صلاح الدين الأيوبى ولأبنائه الملوك والأمراء من بعده.

ومن أهم هذه المدارس تلك التى أنشأها صلاح الدين الأيوبى لتدريس الشافعية والحنفية. والمدرسة الفضلية التى بناها القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى سنة ٥٨٠ هـ، وجعلها لطائفتى الفقهاء الشافعية والمالكية، والمدرسة الصالحية التى بناها الصالح نجم الدين أيوب، وجعلها لفقهاء المذاهب الأربعة، إذ رتب لكل أصحاب مذهب درسًا فيها.

وقد عاش عز الدين بن عبد السلام فى هذا الوسط الزاخر بالمعرفة والعلم، وتتلمذ على كبار مشايخ وأساتذة عصره، وأقبل على العلم فكان أعلم أهل زمانه.

سيرته وحياته [١]

هو أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد السلام بن أبى القاسم بن الحسن بن محمد بن المهذب السلمى الدمشقى الشافعى.

ولد بدمشق عام ٥٧٧ هـ، وقد أهمل مترجموه القدامى، الذين كتبوا سيرته، فترة طفولته وصباه، اللهم إلا «السبكى» فى كتابه «طبقات الشافعية الكبرى» فقد أورد رواية سمعها من والده الإمام توضح النشأة الدينية لعز الدين بن عبد السلام، وبداية تعلمه بعد بلوغه، حيث لم تتيسر له سبل العلم من صغره لشدة فقره.

يقول السبكى [٢] :

«كان الشيخ عز الدين فى أول أمره فقيرًا جدًا، ولم يشتغل إلا على كبر، وسبب ذلك أنه كان يبيت فى الكلاسة[٣] من جامع دمشق، فبات بها ليلة ذات برد شديد، فاحتلم، فقام مسرعًا ونزل فى بركة الكلاسة، فحصل له ألم شديد من البرد، وعاد فنام، فاحتلم ثانيًا، فعاد إلى البركة؛ لأن أبواب الجامع مغلقة، وهو لا يمكنه الخروج، فطلع، فأغمى عليه من شدة البرد، ثم سمع النداء فى المرة الأخيرة: يابن عبد السلام أتريد العلم أم العمل؟ فقال الشيخ عز الدين: العلم؛ لأنه يهدى إلى العمل، فأصبح وأخذ «التنبيه» فحفظه فى مدة يسيرة، وأقبل على العلم، فكان أعلم أهل زمانه، ومن أعبد خلق الله تعالى».

وتتلمذ ابن عبد السلام على أئمة دمشق الثقات، حيث سمع الحديث من الحافظ أبى

---

(١) مصادر الترجمة : العبر ٥/ ٢٦٠، الوافى بالوفيات ١٨/ ٥٢٠، طبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٢٠٩-٢٥٥)، طبقات الشافعية للإستوى (٢/ ١٩٧-١٩٩)، طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (٢/ ١٣٧-١٤٠)، شذرات الذهب ٧/ ٥٢٢، الأعلام (٤/ ١٤٤)، مفتاح السعادة ٢/ ٢١٢، النجوم الزاهرة ٧/ ٢٨، البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٥، مرآة الجنان ٤/ ١٥٣، رفع الأصر ٢/ ٣٥٠، ذيل الروضتين ص٢١٦، طبقات المفسرين للداوودى ١/ ٣٠٩ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ٥/ ٨٢ .

(٣) زاوية الباب الشمالى لجامع دمشق.

محمد القاسم ابن الحافظ الكبير على بن عساكر، ومن شيخ الشيوخ عبد اللطيف بن إسماعيل البغدادى، ودرس الفقه الشافعى على الشيخ الإمام فخر الدين بن عساكر حتى تخرج عليه، وأخذ علم الأصول عن سيف الدين الآمدى[١]، أحد الأئمة الأعلام فى الأصول، وحضر فى البداية على بركات بن إبراهيم الخشوعى، والقاضى جمال الدين بن الخرستانى[٢].

وفى عام ٥٩٧ هـ سافر إلى بغداد فى طلب العلم أيضًا، فسمع الحديث بها من أبى حفص عمر بن طبرزد، وحنبل بن عبد الله الرصافى[٣]، ولم يمكث بها طويلاً وعاد إلى دمشق[٤].

وكان لهؤلاء الأساتذة تأثير كبير فى تكوين شخصية الشيخ عز الدين الفقهية، الأصولية، العلمية، الاجتماعية، القضائية، ونخص بالذكر ثلاثة من هؤلاء الأستاذة، وهم الذين تتلمذ عليهم ابن عبد السلام لمدة أطول، واستفاد منهم أكثر.

فالأول وهو الفخر بن عساكر، الذى تفقه عليه عز الدين، ولازمه مدة طويلة، وكان له أثر كبير فى سلوكه الشخصى، ـ عدا ما تأثر به فى ميدان الفقه والإفتاء ـ من صلاح وورع وإخلاص وقناعة، فالشيخ الفخر اشتهر بعلمه، وورعه، وزهده، وهذه أوصاف سنرى أن للشيخ عز الدين حظًا كبيرًا منها، كما يظهر تأثر ابن عبد السلام بالشيخ الفخر فى سلوكه الإجتماعى، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فنجد عند كليهما مواقف مشابهة من

---

(١) هو على بن أبى على بن محمد بن سالم سيف الدين الآمدى، شيخ المتكلمين فى زمانه، ومصنف الأحكام ، توفى سنة ٦٣١ هـ «وفيات الأعيان ٢ : ٤٥٥، طبقات الشافعية للسبكى ٥ : ١٢٩، البداية والنهاية ١٣ : ١٤٠، طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة ٣٧٩».

(٢) هو عبد الصمد بن محمد بن أبى الفضل بن على بن عبد الواحد، أبو القاسم بن الخرستانى، توفى سنة ٦١٤ هـ «طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة ٣٥٨، البداية والنهاية ١٣ : ٧٧، النجوم الزاهرة ٦ : ٢٢٠، طبقات الشافعية للسبكى ٥ : ٧٤».

(٣) هو حنبل بن عبد الله الرُّصافى، المُكبرٌ، أبو عبد الله راوى المسند، توفى سنة ٦٠٤ هـ «شذرات الذهب ٧: ٢٤، العبر ٥ / ١٠».

(٤) تاريخ علماء بغداد ص ١٠٦ .

بعض السلاطين فى إنكارهما عليهم بعض الأمور، كما سنفصل ذلك فيما بعد.

أما الأستاذ الثانى، قاضى قضاة دمشق، الشيخ جمال الدين بن الخرستانى، فزيادة على زهده، وورعه، وعلمه، اشتهر بنزاهته فى القضاء وجرأته فى الحكم، ومساواته فى الإنصاف بين الراعى والرعية، وسنرى آثار ذلك السلوك الشخصى والقضائى بارزة فى سيرة الشيخ عز الدين.

ويأتى أخيرًا أستاذه الثالث، وهو العالم الأصولى الشهير سيف الدين الآمدى الذى أسهم فى تكوين شخصية ابن عبد السلام الفقهية الأصولية بقسط كبير، وكان الآمدى غزاليَّ عصره فى الأصول، والكلام، والفلسفة، وأستاذ عصره، والشيخ عز الدين نفسه أشاد بذكره، وأبان عن فضله عليه، واعترف بتأثيره فيه.

الإمام الخطيب:

لا مراء أن منصب الخطابة فى الجامع الأموى بدمشق، كان منصبًا عظيمًا فى عصر الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ولم يكن يتولى هذا المنصب إلا كبار علماء هذا العصر، وقد ولى ابن عبد السلام خطابة الجامع الأموى من قبل الملك الصالح إسماعيل[1] فى ربيع الآخر سنة ٦٣٧ هـ، كما ولى خطابة جامع عمرو بن العاص[2] بمصر من قبل الملك نجم الدين أيوب بعد أن غادر الشيخ عز الدين دمشق عام ٦٣٩هـ.

وعندما تولى الشيخ عز الدين الخطابة بالجامع الأموى، أحال هذا الجامع إلى مركز إشعاعى إسلامى يصون للإسلام هيبته وكرامته، واتخذ من المنبر مذياعًا ينطق بكلمة الحق، لا يخاف لومة لائم، أو جبروت متكبر، وأخذ يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر محاربًا كل بدعة وضلالة.

وقد نوه مترجموه القدامى بذلك:

---

(١) هو عماد الدين الملك الصالح إسماعيل بن العادل، تملك دمشق مدة، وكان ملكًا شهمًا محسنًا إلى خدمه وغلمانه وحاشيته، توفى سنة ٦٤٨ هـ «شذرات الذهب ٥: ٢٤١».

(٢) أول جامع أنشىء بديار مصر، أنشأه عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ (٦٤٢م) ويعرف بتاج الجوامع، والجامع العتيق، ويعتبر الأثر الوحيد الذى بقى من عصر الخلفاء الراشدين.

قال الكتبى: «وكان أمارًا بالمعروف، نهاءًا عن المنكر، لا يخاف فى الله لومة لائم»[١].

وقال ابن العماد الحنبلى: «... وهذا مع الزهد والورع، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»[٢].

وقال السبكى: «... القائم بالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر فى زمانه»[٣].

ولم يكن الشيخ عز الدين يكتفى بمجرد الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، بل كان يتخذ موقفًا إيجابيًا فى دعوته، ويباشر فورًا بإبطال المنكرات إذا تباطأ الحكام، أو المسئولون، ولقد أشار السبكى إلى هذا بقوله: «... وباشر بنفسه إبطال بعضها»[٤] ومثال ذلك: قيامه هو وأولاده بهدم «الطبلخانة» التى بناها وزير الدولة المصرية على سطح أحد المساجد بمصر فقد رأى .

وكان الشيخ عز الدين جادًا فى إزالة البدع، ووقف موقفًا متشددًا من ظهور المحدثات فى أمور الدين ومحاربتها بكل ما أوتى من قوة وطاقة، وكان يعمل بنفسه ـ كما عرفنا ـ على إزالة هذه البدع والمحدثات والضلالات وهو يقول:

«طوبى لمن تولى شيئًا من أمور المسلمين فأعان على إماتة البدع، وإحياء السنن».

ويقول الشيخ شهاب الدين أبو شامة -أحد تلامذته-:

«كان أحق الناس بالخطابة والإمامة، فقد أزال كثيرًا من البدع التى كان الخطباء يفعلونها، من دق السيف على المنبر، وغير ذلك، وأبطل صلاتى الرغائب، ونصف شعبان»[٥].

ويقول المؤرخ الفقيه ابن الحنبلى:

«وقد ولى الخطابة بدمشق، فأزال كثيرًا من بدع الخطباء، ولم يلبس سوادًا، ولا سجع

---

(١) فوات الوفيات: ١/ ٥٩٥ .
(٢) شذرات الذهب: ٥/ ٣٠٢ .
(٣) طبقات الشافعية الكبرى: ٥/ ٨٠ .
(٤) نفس المرجع السابق.
(٥) نفس المرجع السابق .

خطبته، كان يقولها متـرسلاً، واجتنب الثناء على الملوك، بل كان يدعو لهم، وأبطل صلاة الرغائب والنصف»[١].

إن ابن عبـد السلام فى محـاربته هذه البدع، والمحـدثات، والضلالات كـان يستند إلى شـريعة القـرآن، وسنة رسول الله ﷺ، وكـان لا يخشى اعـتراض أحـد من المبتـدعين أو المنحرفين، ومن ثم كان يدور بينه وبينهم حوار، ومناقشات، ومناظرات، كانت كلها تنتهى بترجيح كفـة الشيخ عز الدين، وهى ـ بلا شك ـ كفة الحق والصواب، فـمثلاً عندما أنكر الشيخ عز الدين صلاة الرغائب والنصف من شعبان، وقام بإبطالهما، «وقع بينه وبين شيخ دار الحديـث الإمام أبى عمـرو بن الصلاح ـ رحـمه الله ـ فى ذلك مـنازعات ومحـاربات شديدات، وصنف كل واحد منهمـا فى الرد على الآخر، واستصوب المتشرعون المـتحققون مذهب الإمـام ابن عبـد السلام فى ذلك، وشهـدوا له بالبروز بالحق، والصـواب فى تلك الحروب والضراب»[٢].

قاضى القضاة :

ولي الشيخ عز الدين منصب القضـاء فى دمشق من قبل السلطان الكامل عام ٦٣٥ هـ، ولم يدم ابن عبد السلام فى هذا المنصب كثـيرًا، إذ تركه فى نفس العام عندما تولى الحُكْمَ الصالح إسماعيل الذى لم يكن على وفاق مع الشيخ عز الدين.

وعند قدوم سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام القاهرة عام ٦٣٩ هـ، ولاه الصالح نجم الدين أيوب[٣] منصب رئيس القضاة لمصر والوجـه القبلى فى «١٠ جمادى الأولى من نفس العام»، بعد وفاة قاضى القضاة شرف الدين بن عين الدولة.

وقد اشـتهر الـشيخ عز الدين بالنزاهة والـعدالة فى القضـاء، وامتاز بـالجرأة فى الحكم والتنفيـذ، لم يخضع فى قضـائه إلا للحق، وكان العدل أسـاس أحكامه، لم يترك فـرصة

---

(١) شذرات الذهب ٥/ ٣٠٢ .

(٢) مرآة الجنان وعبرة اليقظان: ـ٤/ ١٥٥ .

(٣) هو أبو الفتوح أيوب بن محمد بن أبـى بكر نجم الدين الملك الصالح، وكان من كبار الملوك الأيوبيين بمصر، وكان شجاعًا مهيبًا، عفيفيًا، من آثاره قلعة الروضة بالقاهرة، توفى سنة ٦٤٧ هـ.

لأهل الهوى لكى يتـدخلوا فى تغيير مجـرى العدالة، ولم يترك فرصـة لأهل الباطل لكى يزهقوا الحق، وإنما كـان جريئًا لا يخـاف إلا الله، ومن ثم استطاع أن يجـابه أهل الباطل، ويتحدى تدخلهـم فيما لا يعنيهم، وكـان يهدد بالاستقالة دائـمًا، إذا وقع تحت ضغط من السلطة الحاكمة، أو إذا حكم بالحق، ولم يجد الحق طريقًا للتنفيذ.

ولعل من أهم الأحداث التى صادفته، وهو فى منصب القضاء، حادث بيع أمراء الدولة الأتراك المماليك، فقد رأى قاضى القضاة عز الدين بن عبد السلام أن هؤلاء الأمراء ما زالوا عبيدًا أرقاء من الوجهة الشرعيـة، ولم يثبت عنده أنهم نالوا الحرية حسب الشريعة، فحكم عليهم بأنهم مـن أملاك بيت المسلمين، وطالب بعتـقهم بالطريق الشـرعى، وعندما تدخل السلطان فى هذه القضية؛ غضب الشيخ وقدم استـقالته وقرر العودة مرة أخرى إلى الشام، وهنا تلطف مـعه السلطان، وترك لـه حرية الرأى والحكم ورده إلى منصـبه ليـأخذ العـدل مجراه، وتعلو راية الحق، وسنتناول هذه الحادثة بالتفصيل فيما بعد.

أما الحـادثة الأخرى التى كـانت سببًـا فى استـقالة الشيـخ عز الدين نهائيًـا من منصب القـضاء، فكانت بسـبب حكم ابن عـبد الـسلام على وزير المملكـة معين الدين بن شـيخ الشيـوخ وزير الملك الصالح نجم الدين، وقـد وقعت هذه الحادثة فى أواخـر عام ٦٤٠ هـ «فقد بنى أحد غلمان الصاحب معين الدين -بأمر مخدومه- بناء على سطح مسجد بمصر، وجعل فيه طبلخـانة عماد الدين بن شيخ الشيوخ، فأنكر ذلك قـاضى القضاة عز الدين بن عبـد السلام، ومضى بنـفسه وأولاده، حـتى هدم البناء، ونقل ما على السطح، ثم أشـهد «قاضى القضاة» على نفسه أنه قد أسقط شـهادة الوزير معين الدين، وأنه قد عزل نفسه من القضاء[1].

المفتى السديد :

عرف الشيخ عز الدين بمفتى الشام، وكـان الشيخ عز الدين جديرًا بهذا المنصب، وذلك لصدقه وبراعته، وسعة أفقه، وحرصه على أمور الدين.

---

(١) السلوك للمقريزى: القسم الثانى حـ ١، ص ٣١٢ .

قال عنه الشيخ اليافعي: «. . . وأفتى الفتاوى السديدة»[١].

وكان من نتائج هذا أن جاوزت شهرته بلاد الشام، وقُصِدَ بالفتاوى من الآفاق، ويؤيد ذلك قصد أهل الموصل له بالاستفتاء حتى جمع فى ذلك مجموعة تعرف باسم «الفتاوى الموصلية».

ولما استقر مقامه بمصر أكرمه حافظ الديار المصرية وزاهدها عبد العظيم المنذرى، وامتنع عن الفتيا، قائلاً:

«كنا نفتى قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه»[٢].

وتجمعت للشيخ عز الدين مجموعة من الفتاوى عرفت فى مؤلفاته باسم «الفتاوى المصرية».

وقد أورد السبكى رواية تدل على مدى حرص واهتمام الشيخ عز الدين بإصدار الفتاوى السديدة، وملخصها أن الشيخ عز الدين أفتى مرة بشىء، ثم ظهر له أنه أخطأ، فنادى فى مصر والقاهرة على نفسه: من أفتى له فلان بكذا، فلا يعمل به فإنه أخطأ[٣].

الأستاذ العلامة :

درَّس الشيخ عز الدين بعدة مدارس بدمشق، كما قال مترجموه، من أهمها المدرسة الغزالية، والمدرسة الشبلية البرانية، وقد باشر التدريس فى المدرسة الأولى أيام الملك الأشرف، وتولى التدريس فى الأخرى بتكليف من الملك الكامل.

وفى مصر تولى سلطان العلماء التدريس فى المدرسة الصالحية المعروفة بين القصرين فى القاهرة، وقد بناها السلطان الصالح نجم الدين أيوب فى سنة ٦٣٩ هـ، وأنشأ فيها لأول مرة أربعة دروس لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة، وقد عهد السلطان إلى الشيخ عز الدين تدريس الفقه الشافعى بهذه المدرسة بعد أن قدم الشيخ استقالته من منصب قاضى

(١) مرآة الجنان وعبرة اليقظان: جـ ٤ .
(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ٥/ ٨١ .
(٣) طبقات الشافعية الكبرى: ٥/ ٨٣ .

القضاة .

قال ابن العماد الحنبلى:

«وأخذ التفسير فى دروسه، وهو أول من أخذه فى الدروس»[١].

وكذلك نوَّه به السيوطى قائلاً:

«وألقى التفسير بمصر دروسًا»[٢].

وقد تخرج على الشيخ عز الدين كثير من التلاميذ الأئمة، الذين تأثروا بشخصية الشيخ، وانتفعوا بعلمه، واقتدوا بأخلاقه وسلوكه.

ومن أقرب تلاميذه إليه شيخ الإسلام تقى الدين بن دقيق العيد[٣]، وكان إمامًا فقيهًا أصوليًا، وكان من تقديره لأستاذه وعرفانه لمكانته أن لقبه بـ «سلطان العلماء» فاشتهر بهذا اللقب الشيخ عز الدين.

ومن تلاميذه البارزين قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز[٤]، وكان إمامًا فقيهًا وقاضيًا عادلاً، وأستاذًا جليلاً، وهو الذى فوض إليه الشيخ عز الدين التدريس فى المدرسة الصالحية عند وفاته، وكان نائبه فى الحكم.

ومن تلاميذه أيضًا الإمام علاء الدين أبو الحسن الباجى[٥]، والحافظ أبو محمد

---

(١) شذرات الذهب: ٥/ ٣٠٢ .

(٢) حسن المحاضرة: ٢/١٧٣ .

(٣) هو محمد بن على بن وهب بن مطيع بن أبى الطاعة القشيرى، شيخ الإسلام تقى الدين أبو الفتح، ابن دقيق العيد، توفى سنة ٧٠٢ هـ «طبقات الشافعية للسبكى ٦: ٢، البداية والنهاية ١٤: ٢٧، النجوم الزاهرة ٨: ٢٠٦، الدرر الكامنة ٩: ٩١، طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة ٥١٧».

(٤) هو عبد الوهاب بن خلف بن بدر، العلامى، قاضى القضاه تاج الدين، الشهير بابن بنت الأعز - والأعز كان وزير الكامل بن العادل - توفى سنة ٦٦٥ هـ «شذرات الذهب ٧: ٥٥٥، طبقات الشافعية الكبرى ٥: ١٣٤، البداية البادية والنهاية ١٣: ٢٤٩، النجوم الزاهرة ٧: ٢٢٢».

(٥) هو على بن محمد بن عبد الرحمن بن خطاب، علاء الدين، أبو الحسن الباجى، المصرى، توفى سنة ٧١٤ هـ «طبقات الشافعية الكبرى ٦: ٢٢٧، طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة ٥٢١، الدرر الكامنة ٣: ١٠١».

الدمياطى[١]، والحافظ أبو بكر بن مسدى الأندلسى، والشيخ شهاب الدين أبو شامة المقدسى المؤرخ الفقيه، والعلامة أحمد أبو العباسى الدشناوى[٢]، والعلامة أبو محمد هبة الله القفطى، والشيخ تاج الدين الفركاح، والقاضى صدر الدين موهوب بن عمر الجزرى[٣].

الفقيه المجتهد :

قلنا إن الشيخ عز الدين تلقى دروسه فى العلوم العربية والحديث والتفسير والفقه والأصول على أساتذة دمشق الثقات، وعلى الرغم من أنه عُرِف كواحد من أئمة الفقهاء الشافعية، وزاول تدريس الفقه الشافعى زمنًا طويلاً، فهو فى الحقيقة ليس فقيهًا شافعيًا بمعنى الكلمة الضيق؛ لأنه تخطى كثيرًا حدود الفقه الشافعى، ولم يتقيد به دائمًا، ولذلك عدَّ من المجتهدين، ونصَّ على ذلك كثير من مترجميه .

ثناء العلماء عليه:

قال السيوطى: «. . . ثم كان فى آخر عمره لا يتعبد بالمذهب، بل اتسع نطاقه، وأفتى بما أدى إليه اجتهاده»[٤].

وقال شيخ الإسلام الذهبى: «وقرأ الأصول والعربية، وبرع فى المذهب، وبلغ رتبة

---

(١) هو عبد المؤمن بن خلف بن أبى الحسن بن شرف بن الخضر بن موسى، الحافظ الكبير، شرف الدين أبو محمد، وأبو أحمد، الدمياطى، توفى سنة ٧٠٥ هـ «البداية والنهاية ١٤: ٤٠، طبقات الشافعية للسبكى ٦: ١٣٣، طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة ٥٠٩، النجوم الزاهرة: ٨: ٢٠٨».

(٢) هو أحمد بن عبد الرحمن بن محمد، الكندى، الشيخ جلال الدين الدَّشْنَاوى - منسوب إلى دشنا، وهى بلدة من صعيد مصر الأدنى، توفى سنة ٦٧٧ هـ «الأعلام ١: ١٤٣، طبقات الشافعية للسبكى ٥: ٩، طبقات ابن قاضى شهبة ٤٢٩».

(٣) هو موهوب بن عمر بن موهوب بن إبراهيم الجزرى، ثم المصرى، أبو منصور، توفى سنة ٦٦٥ هـ «شذرات الذهب ٥: ٣٢٠، طبقات الشافعية الكبرى ٥: ١٦٢، طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة ٤٥٣».

(٤) حسن المحاضرة: ٢/ ١٧٣ .

الاجتهاد، وقصده الطلبة من الآفاق، وتخرَّج به أئمة. . .»[١].

وقال الحافظ أبو بكر بن مسدى الأندلسى:

«أحد فقهاء هذا المذهب، ممن فَرَّعَ على أصوله وَهذَّبَ، ورأس على فقهاء بلده»[٢].

وبالغ العلامة ابن الحاجب المالكى قائلاً: «ابن عبد السلام أفقه من الغزالى»[٣].

وقال ابن العماد الحنبلى: «وبرع فى الفقه، والأصول والعربية، وفاق الأقران والأضراب، وجمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والفقه، واختلاف أقوال الناس ومآخذهم، وبلغ رتبة الاجتهاد، ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد»[٤].

---

(١) النجوم الزاهرة: ٧/ ٢٠٨ .

(٢) تاريخ علماء بغداد: ص ١٠٥ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى: ٥/ ٨١ .

(٤) شذرات الذهب: ٥/ ٣٠١ .

مؤلفاته

أولاً: علوم القرآن:

١ ـ اختصار تفسير «النكت والعيون» للماوردى، توفى سنة ٤٥٠ هـ، وقد حققه دكتور عبد الله الوهيبى، وهو مطبوع فى الرياض .

٢ ـ تفسير كامل للقرآن الكريم «خ».

٣ ـ الفوائد فى مشكل القرآن، حققه سيد رضوان على، وطبع فى الكويت سنة ١٩٦٧ .

ولهذا المخطوط عدة عناوين هى: «مسائل وأجوبة فى علوم متعددة من القرآن والحديث والفقه»، و«فوائد العزّ بن عبد السلام»، و «فوائد فى علوم القرآن»، و«أمالى عز الدين بن عبد السلام على القرآن الكريم».

٤ ـ مجاز القرآن، أو «الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز»، وهو هذا الكتاب الذى بين أيدينا.

ثانيًا: الحديث الشريف:

٥ ـ شرح حديث أم زرع «خ».

٦ ـ مختصر صحيح مسلم «خ».

ثالثًا: العقائد:

٧ ـ المِلْحة فى اعتقاد أهل الحق، حققه الأستاذ: إياد خالد الطباع، ونشر فى دمشق ١٩٩٥م.

٨ ـ الأنواع فى علوم التوحيد، حققه الأستاذ إياد خالد الطباع، ونشر فى دمشق ١٩٩٥م.

٩ ـ الفرق بين الإيمان والإسلام، حققه الأستاذ إياد خالد الطباع، ونشر فى دمشق ١٩٩٥م.

١٠ ـ نبذة مفيدة من الردّ على القائل بخلق القرآن، حققه الأستاذ إياد خالد الطباع، ونشر فى دمشق ١٩٩٥م.

١١ ـ رسالة فى التوحيد، حققه الأستاذ إياد خالد الطباع، ونشر فى دمشق ١٩٩٥م.

١٢ ـ وصية الشيخ عز الدين عبد السلام إلى ربه الملك العلام، حققه الأستاذ إياد خالد الطباع، ونشر فى دمشق ١٩٩٥م.

رابعًا: الفقه وأصوله:

١٣ ـ قواعد الأحكام فى مصالح الأنام: طبع ثلاث مرات فى القاهرة دون تحقيق علمى، وتحمل الأصول المخطوطة لهذا الكتاب عدة عنوانات متقاربة: «قواعد الشريعة»، و«القواعد الكبرى»، و «القواعد فى المصالح والمفاسد».

١٤ ـ القواعد الصغرى: وهى اختصار للكتاب السابق «القواعد الكبرى»، وتحمل نسخه المخطوطة عناوين عدة أيضًا: «الفوائد فى مختصر القواعد» و «الفوائد فى اختصار المقاصد» و «الأمالى فى المصالح والمفاسد»، حققه الأستاذ إياد خالد الطباع، ونشر فى دمشق.

١٥ ـ الإلمام فى بيان أدلة الأحكام «خ».

١٦ ـ الترغيب عن صلاة الرغائب الموضوعة، وبيان ما فيها من مخالفة السنن المشروعة: حققه محمد ناصر الدين الألبانى، وزهير الشاويش، وطبع فى دمشق تحت عنوان: «مساجلة علمية بين الإمامين الجليلين: العزّ بن عبد السلام، وابن الصلاح».

١٧ ـ الغاية فى اختصار «نهاية المطلب فى دراية المذهب» للإمام الجوينى «خ».

١٨ ـ الجمع بين «الحاوى» و «النهاية»: «خ»، وهو اختصار لكتابى الحاوى للماوردى، والنهاية للجوينى.

١٩ ـ مقاصد الصلاة، حققه الأستاذ: إياد خالد الطباع، ونشر فى دمشق.

٢٠ ـ مقاصد الصوم: حققه الأستاذ إياد خالد الطباع، ونشر فى دمشق.

٢١ ـ أحكام الجهاد وفضائله: حققه وعلّق عليه د. نزيه حماد ـ دار الوفاء بمكة المكرمة ١٩٨٦م.

٢٢ ـ مناسك الحج: حققه الأستاذ إياد خالد الطباع، ونشر فى دمشق.

خامسًا: الفتاوى:

٢٣ ـ الفتاوى الموصلية: حققه الأستاذ إياد خالد الطباع، ونشر فى دمشق.

٢٤ ـ الفتاوى المصرية: صدر فى القاهرة عن مكتبة القرآن بعنوان «فتاوى سلطان العلماء» العزّ بن عبد السلام، حققه وقدّم له مصطفى عاشور.

سادسًا: التصوّف:

٢٥ ـ شجرة المعارف: حققه الأستاذ إياد خالد الطباع، ونشر فى دمشق، ١٩٩٢ م.

٢٦ ـ مقاصد الرعاية: أو «مختصر الرعاية»: وهو اختصار لكتاب «الرعاية لحقوق الله»، للمحاسبى، وحققه الأستاذ: إياد خالد الطباع، ونشر بدمشق ١٩٩٥ م.

٢٧ ـ شرح الأسماء الحسنى: «خ».

سابعًا: موضوعات مختلفة:

٢٨ ـ مُنية السول فى تفضيل الرسول، وقد حققه الدكتور صلاح الدين المنجد، ونشر فى بيروت ١٩٨١م، وقد طبع بتحقيق محمد ناصر الدين الألبانى، ونشره المكتب الإسلامى تحت عنوان «بداية السول فى تفضيل الرسول»، وكذلك حققه الأستاذ: إياد خالد الطباع، ونشر بدمشق ١٩٩٥م.

٢٩ ـ فوائد البلوى والمحن، حققه الأستاذ: إياد خالد الطباع، ونشر بدمشق ١٩٩٢م.

٣٠ ـ ترغيب أهل الإسلام في سُكنَى الشام، حققه الأستاذ: إياد خالد الطباع، ونشر بدمشق.

٣١ ـ بيان أحوال الناس يوم القيامة: حققه الأستاذ إياد خالد الطباع، ونشر فى دمشق ١٩٩٥م.

كرامات الشيخ

والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وهو فى ورعه، وتقواه، وإيمانه، وإخلاصه لله، له مواقف هى بمنزلة الكرامات، بإرادة من الله جل وعلا.

قال السيوطى: «وله كرامات كثيرة».

وقال ابن إياس المصرى: «وكانت له كرامات خارقة».

وقد أورد السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى بعض هذه الكرامات:

يقول السبكى:

«سمعت الشيخ صدر الدين أبا زكريا يحيى بن على السبكى يقول: كان فى الريف شخص يقال له عبد الله البلتاجى من أولياء الله تعالى، وكانت بينه وبين الشيخ عز الدين صداقة، فكان يهدى له فى كل عام، فأرسل إليه مرة حمل جمل هدية، ومن جملته وعاء فيه جبن، فلما وصل الرسول إلى باب القاهرة انكسر ذلك الوعاء فتبدد ما فيه، فتألم الرسول لذلك، فرآه شخص ذمى، فقال له: لم تتألم؟ عندى ما هو خير منه، قال الرسول: فاشتريت منه بَدَلَه، وجئت، فما كان إلا بقدر أن وصلت إلى باب الشيخ، ولم يعلم بى ولا بما جرى لى غير الله تعالى، وإذا بشخص نزل من عند الشيخ وقال: اصعد بما جئت، فناولته شيئًا فشيئًا إلى أن سلمته ذلك الجبن، فطلع ثم نزل، فقلت: أعطيته للشيخ؟ فقال: أخذ الجميع إلا الجبن ووعاءه، فإنه قال لى: ضعه على الباب.. فلما طلعت أنا، قال لى: يا ولدى أيش تعمل بهذا.. إن المرأة التى حلبت لبن هذا الجبن كانت يدها متنجسة بالخنزير! وردَّه وقال: سلم على أخى»[1].

ومن كراماته أيضًا، ما يحكى فى واقعة الفرنج «الصليبيين» فى دمياط التى كاد المسلمون أن ينهزموا فيها لشدة الريح والطوفان فى النيل، فنادى الشيخ بأعلى صوته مشيرًا بيده إلى الريح:

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٥/ ٨١.

«يا ريح.. خذهم» عدة مرات، فعادت الريح على مراكب الفرنج وكان الفتح، وصرخ أحد المسلمين بقوله:

«الحمد لله الذى أرانا من أمة محمد ﷺ رجلاً سخر له الريح»[1].

مواقف حاسمة فى حياة سلطان العلماء

(١) خيانة سلطان دمشق:

عندما اشتد الصراع بين أفراد البيت الأيوبى، بعد وفاة السلطان الكامل عام ١٢٣٨م، لجأ كل واحد منهم إلى محالفة غيره، وتكونت بذلك عدة كتل متصارعة، وبلغ النزاع قمته بين الصالح إسماعيل سلطان دمشق وبين ابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب الذى استطاع أن يملك السلطة فى مصر عام ١٢٤٠م.

ولم يجد الصالح إسماعيل قوة أمامه يمكنه أن يستعين بها سوى قوة الصليبيين أعداء الوطن والدين، فمد يده إليهم وطلب محالفتهم ضد الصالح أيوب فى مصر، ولكى يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين بادر فوراً بتسليمهم القدس وطبرية وعسقلان، فضلاً عن قلعة الشقيف وأعمالها، وقلعة صفد وبلادها، ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالها، وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل.

وأكثر من هذا فإن الصالح إسماعيل لم يتورع عن التصريح للصليبيين أعداء الإسلام فى دخول دمشق، وترك لهم حرية شراء السلاح من أهل دمشق.

وهنا ثار الرأى العام الإسلامى وذهب المسلمون إلى العلماء واستفتوهم فى ذلك، فأفتى الشيخ عز الدين بتحريم بيع السلاح للصليبيين، ولم يكتف الشيخ بإصدار الفتوى فحسب، بل قام بقطع الدعاء للسلطان من الخطبة، وصار يحث الناس على الجهاد ومقاطعة الصليبيين، مهاجمًا السلطان لتعاونه مع أعداء الدين، وحرص على ترديد هذا الدعاء بعد فراغه من الخطبتين:

---

(١) المرجع السابق: ص ٨٤ .

«اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد، تعز فيه أولياءك، وتذل فيه أعداءك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهى فيه عن معصيتك». . والناس يضجون بالدعاء.

وكان الصالح إسماعيل غائبًا عن دمشق، فكاتبه أعوانه بما حدث، وحرفوا القول، فورد كتابه بعزل الشيخ عز الدين عن الخطابة، واعتقاله هو والشيخ أبى عمرو بن الحاجب المالكى؛ لأنه رفع صوته فى الإنكار عليه مع عز الدين .

«ثم لما قدم إسماعيل إلى دمشق أفرج عنهما، وألزم ابن عبد السلام بملازمة داره، وأن لا يفتى، ولا يجتمع بأحد البتة، فاستأذنه فى صلاة الجمعة، وأن يعبر إليه طبيب أو مزين إذا احتاج إليهما، وأن يعبر الحمام، فأذن له فى ذلك»[1].

ولم يكن بالإمكان أن يواصل الشيخ عز الدين رسالته وهو فى هذه العزلة الجبرية المفروضة عليه، فقرر الهجرة من دمشق إلى أى أرض من أراضى الله الواسعة يستطيع فيها مواصلة جهاده فى سبيل الله، ووقع اختياره على مصر، فخرج من دمشق فى أواخر عام ٨٣٦ هـ تاركًا إياها تئن تحت وطاة حكم عدو الدين الصالح إسماعيل.

ويصف ابنه الشيخ عبد اللطيف ما حدث له فى طريقه إلى مصر فيقول:

«. . . انتزح منها -من دمشق- إلى بيت المقدس، فوافاه الملك الناصر داود فى الفور فقطع عليه الطريق، وأخذه، وأقام عنده بنابلس مدة، وجرت له معه خطوب، ثم انتقل إلى بيت المقدس، حيث أقام مدة، ثم جاء الصالح إسماعيل والملك المنصور صاحب حمص، وملوك الإفرنج بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس، يقصدون الديار المصرية، فسيَّر الصالح إسماعيل بعض خواصه إلى الشيخ بمنديله وقال له: تدفع منديلى إلى الشيخ، وتتلطف به غاية التلطف، وتستنزله وتعده بالعودة إلى مناصبه على أحسن حال، فإن وافقك فتدخل به علىَّ، وأن خالفك فاعتقله فى خيمة إلى جانب خيمتى».

فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع فى مسايسته، وملاينته، ثم قال له:

- بينك وبين أن تعود إلى مناصبك، ما كنت عليه وزيادة، أن تنكسر للسلطان وتقبل

(١) السلوك للمقريزى: ١/ ٣٠٤ .

يده، لا غير.

فقال الشيخ: «والله.. يا مسكين.. ما أرضاه أن يُقَبِّلَ يدى فضلاً عن أن أُقَبِّل يده».. «يا قوم أنتم فى واد، وأنا فى واد، والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به».

فقال: قد رسم لى أن توافق على ما يطلب منك، وإلا اعتقلتك، فقال الشيخ: «افعلوا ما بدا لكم».

فأخذه واعتقله فى خيمة إلىٰ جانب خيمة السلطان.. وكان الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمعه. فقال يومًا لملوك الفرنج: تسمعون هذا الشيخ الذى يقرأ القرآن؟

قالوا: نعم.

قال: هذا أكبر قسوس المسلمين وقد حبسته لإنكاره علىَّ تسليمى لكم حصون المسلمين، وَعَزَلْته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه، ثم أخرجته فجاء إلى القدس، وقد حددت حبسه واعتقاله لأجلكم!

فقالت ملوك الفرنج: «لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها».

«ثم جاءت العساكر المصرية، ونصر الله الأمة المحمدية، وقتلوا عساكر الفرنج، ونجى الله سبحانه وتعالى الشيخ، فجاء إلى الديار المصرية»[1] واستقبله الملك الصالح نجم الدين أيوب أحسن استقبال، ورحب به، ومضى الشيخ عز الدين مواصلة رسالته من القاهرة.

(٢) بيع أمراء الدولة المماليك فى المزاد:

تعد هذه الحادثة من أهم المواقف الحاسمة فى تاريخ الشيخ عز الدين بن عبد السلام، الذى لم يخف فى الله لومة لائم أو جبروت متكبر، لقد استطاع وهو فى منصب قاضى القضاة أن يثير قضية فى غاية الخطورة، تمس مصالح طبقة قوية لها كيانها ونفوذها فى مصر آنذاك، وهى طبقة أمراء الدولة المماليك، والتزم موقفًا حاسمًا لم يحد عنه، ولم يتراجع، ولم يتردد، ولم يقبل أنصاف الحلول، وإنما استهدف إيجاد الحل الأوحد لهذه القضية وهو

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى: ـ٥/ ١٠١، وما بعدها.

بيع هؤلاء الأمراء فى المزاد العلنى لصالح بيت مال المسلمين، وذلك لتحريرهم من عبوديتهم وعتقهم من حكم الرق بالطريق الشرعى؛ حتى يجوز لهم أن يتصرفوا تصرف الأحرار فى مجالات الحياة المختلفة.

ومن أجل هذا بدأ ابن عبد السلام يبطل أنواع العقود التى يعقدونها من بيع وشراء ونكاح وطلاق وما إليها، فتعطلت مصالحهم بذلك، واضطربت شؤونهم، وضاقت بهم الحياة.

وكان من جملة هؤلاء نائب السلطنة، فاشتد غضبًا وثار وهاج، واجتمع القوم وأرسلوا إلى الشيخ عز الدين يستفسرونه: ماذا ينوى بهم؟ فأتى إليهم من الشيخ جواب صريح جرىء:

«نعقد لكم مجلسًا، وينادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعى».

ولم يقتنع الأمراء بهذا الرأى، ورفعوا الأمر إلى السلطان، متأكدين من تدخله لصالحهم، لإقناع الشيخ بالرجوع عن هذا الموقف، فطلب السلطان من الشيخ أن يتركهم وشأنهم، فلم يرجع الشيخ عن حكمه وصمد فى موقفه، وأصيب بذلك السلطان فى كبريائه وعظمته، وجرت على لسانه كلمة ضد الشيخ عنيفة ملؤها النقمة والسخط، وحاصلها أن الشيخ لا يجوز له أن يحكم هذا الحكم القاسى على أمراء دولته ونائب سلطنته وهو أمر لا علاقة له به، وهو بذلك يتجاوز صلاحيته.

وغضب قاضى القضاة لتدخل السلطان، وترك القضاء محتجًا، وعزم على ترك البلاد، وحمل فعلاً أمتعته على حمار... وأركب عائلته على حمار آخر، وسار مترجلاً خلفهم خارجًا من القاهرة، قاصدًا الشام، وعندما علم المسلمون بهذا سارع أغلبهم - خاصة العلماء والصالحون والتجار وأمثالهم - رجالاً ونساء وأطفالاً - باللحاق به، وبلغ ذلك السلطان، وقيل له: «متى راح ذهب ملكك»، فركب السلطان بنفسه، ولحقه واسترضاه، وطيَّب خاطره، فرجع واتفق على أن ينادى على الأمراء فى المزاد.

وحاول نائب السلطنة مرة أخرى إقناع الشيخ عز الدين بالعدول عن رأيه، لم يتردد ولم يتراجع عن حكمه، وعند ذلك فقد نائب السلطنة صوابه، وصاح فى كبرياء وخيلاء:

«كيف يُنَادى علينا هذا الشيخ ويبيعنا، ونحن ملوك الأرض؟ والله.. لأضربنه بسيفى هذا».

فركب بنفسه وأخذ معه جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول فى يده، وطرق الباب، فخرج ولد الشيخ، ورأى من الوزير ما رأى، فعاد إلى أبيه يخبره، وهو فزع خائف على والده، فما اكترث الشيخ بذلك ولا تغير وقال:

«يا ولدى.. أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله» ثم خرج الشيخ إلى نائب السلطنة.

يروى السبكى فى كتابه قائلاً:

«وحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب وسقط السيف منها، وأرعدت مفاصله، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعو له؟».

وقال: يا سيدى.. خير، أى شىء تعمله؟

قال الشيخ: «أنادى عليكم وأبيعكم».

قال النائب: فأين تصرف ثمننا؟

قال الشيخ: فى مصالح المسلمين.

وتم له ما أراد، ونادى على الأمراء واحدًا واحدًا، وغالى فى ثمنهم، وقبضه وصرفه فى وجوه الخير».

٣ ـ فتنة الحنابلة:

كان الملك الأشرف موسى بن العادل، لما أخذ دمشق ـ وبها يومئذ الشيخ عزّ الدين ـ وشى به إليه أنه يخالفه فى المعتقد، وكان الشيخ ـ رحمه الله ـ رأسًا فى مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرىّ، وكان الأشرف على خلاف الأشعرىّ، فدسَّ أعداؤه عليه فتوى فى مسألة الكلام، فكتب عليها العقيدة المشهورة، وهى طويلة تشتمل على طريقة أبى الحسن

الأشعرىّ، ووضع فيها من الحنابلة وغضَّ منهم، فلما وقف عليها الأشرف اشتد غضبه، ووقع فى حق الشيخ بعظيمة، وكان عنده جمع من الفقهاء فلم يستطيعوا أن يردوا قوله سوى بعض الأعيان فإنه قال: السلطان أولى بالعفو والصَّفح، فكثرت القالة، وقام الشيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب فى حق الشيخ عزّ الدين، ومضى إلى القضاة والعلماء الذين حضروا مجلس الأشرف وعاتبهم على سكوتهم، وما زال بهم حتى كتبوا خُطُوطَهم على فتوى بصورة الحال وافقوا فيها ابن عبد السلام، وطلب ابن عبد السلام أن يَعْقِدَ الأشرف مجلسًا يحضره الشافعية والحنابلة والمالكية والحنفية، فكتب الأشرف بخطه: وصل إلىَّ ما التمسه الفقيهُ ابنُ عبد السلام، أصلحه الله، من عَقْدِ مجلس وجمع المُفْتِين والفقهاء، وقد وقفنا على خطِّه وما أفتى به، وعلمنا من عَقيدته ما أغنى عن الاجتماع به، ونحن فَنَتَّبِع ما عليه الخُلفاءُ الراشدون الذين قال ﷺ فى حقِّهم: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِى وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِى**» وعقائد الأئمة الأربعة فيها كفاية لكَلِّ مسلمٍ يغلبُ هواه ويتَبع الحَق ويتَخلص من البدَع، إلا إن كنتَ تدَّعى الاجتهاد، فَعليك أن تُثْبِتَ؛ ليكونَ الجوابُ على قدْر الدَّعوى، لتكون صاحبَ مذهب خامس، وأمَّا مَا ذكرته عن الذى جَرى فى أيام والدى ـ تغمَّده الله برحمته ـ فذلك الحال أنا أعْلَمُ به منك، وما كان لك سبب إلا فَتْحَ باب السلامة لأمر دينى.

وجُرْمٍ جـرَّه سُفَهـاءُ قَوْمٍ ... فحلَّ بِغَيرِ جانبه العَذَابُ

ومع هذا فقد ورد فى الحديث:

«**الفِتْنَةُ نائمَةٌ لَعَن اللهُ مُثِيرها**» ومَن تعرَّض لإثارتها قاتلناه بما يُخَلِّصنا من الله تعالى، وما يَعْضُد كتابَ الله وسُنَّةَ رسوله ﷺ.

فلما قرأها الشيخ عز الدين بن عبد السلام كتب جوابها بعد البسملة: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ أما بعدَ حمْد الله الذى جلَّت قُدرتُه، وعظمت كلمَتُه، وعمَّت رحمتُه، وسبغت نعمته، فإن الله قال لأحبِّ خلقه إليه وأكرمهم لديه: ﴿**وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ**﴾ [الأنعام:١١٦]، وقد أنزل الله كتُبَه وأرسَل رسُله لنصائح خلقه، فالسّعيد من

قبل نصائحَه وحَفظ وصاياه، وكان فيما أوصى به خلْقه أن قال: ﴿يَا أَيُّها الَّذين آمَنُوا إنْ جَاءكُمْ فَاسقٌ بِنَبَأ فَتَبَيَّنُوا أنْ تُصيبُوا قومًا بجَهالة فَتُصْبحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُم نَادمين﴾ [الحجرات: ٦]، فهو سُبحَانَه أوْلى مَنَ قُبِلت نصيحتُه، وحُفِظت وصيَّته.

وأما طَلَبُ المجْلس وَجمْع العُلماء، فما حملنى عليه إلا النصحُ للسلطان وعامَّة المسلمين، وقد سُئل رسول الله ﷺ عن الدِّين، فقال: «**الدين النصيحةُ**» قيل: لمنْ يا رسولَ الله قال: «**لله ولكتابه ولرسوله وأئمَّة المُسلمين وعَامَّتهمْ**» فالنُصحَ لله بامتثال أوَامره واجتناب نواهيه، ولكتابه بالعمل بموجَبه، ولرسَوله باتباع سُنَّته، وللأئمة بإرشادهم إلى أحكامه والوقوف عند أوامره ونواهيه، ولعامَة المسلمين بدلالتهم على ما يُقرِّبُهم إليه ويُزْلفُهم لديه، وقد أدَّيتُ ما علىَّ فى ذلك.

والفُتيا التى وقعت فى هذه القضية يُوافقُ عليها علماء المسلمين، من الشافعيَّة والمالكيَّة والحنفيَّة والفضلاء من الحنبلية، وما يخالف فى ذلك إلاَّ رعاعٌ لا يَعْبأُ الله بهم، وهو الحق الذى لا يجوز دَفْعُه، والصواب الذى لا يمكن رَفَعُه، ولو حضر العلماء مجلسَ السلطان لعلم صحَّة ما أقول، والسلطان أقْدَرُ على تحقيق ذلك، وقد كتب الجماعةُ خُطوطَهم على ما قلتُه، وإنما سكَت مَن سكَت فى أوَّل الأمرِ لما رأوا من غضب السُّلطان ولولا ما شاهدوه من غضب السلطان لما أفتوا أولاً إلا بما رجعوا إليه آخرًا، ومع ذلك فنكْتب ما ذكرتُه فى الفُتْيا، وما ذكره الغيرُ، وتَبعثُ به إلى بلاد الإسلام، ليكتُب فيها كلّ من يحب الرجوعُ إليه ويُعتَمدُ فى الفتيا عليه، ونحن نُحضِر كُتبَ العلماء المعتبرين، ليقفَ عليها السلطان.

وبلغنى أنهم ألقَوْا إلى سمْع السلطان أنَّ الأشعَرِىّ يستهين بالمصْحَف، ولا خلافَ بين الأشعريَّة وجميع علَماء المسلمين أن تعظيم المصحف واجبٌ، وعندنا أنَّ مَن استهان بالمصحف أو بشىء منه فقد كفر، وانفسخ نكاحُه، وصار مالُهَ فَيْئًا للمسلمين، ويُضْرَب عُنقُه، ولا يُغَسَّل ولا يُكفَّنُ، ولا يُصَلَى عليه، ولا يُدْفنُ فى مقابر المسلمين، بل يُتركُ بالقاع طُعمَة للسباع.

ومَذْهَبُنا أن كلام الله تعالى قديمٌ أزلىٌّ قائمٌ بذاته، لا يُشبه كلامَ الآدميين، كما لا يشبه ذاتهُ ذاتَ الخلقِ، ولا يُتصَوَّرُ فى شىء من صفاته أن تُفارقَ ذاته، إذ لو فارَقتْه لصار ناقصًا،

تعالى الله عما يقول الظالمون عُلوًا كبيرًا، وهو مع ذلك مكتوبٌ فى المصاحف، محفوظٌ فى الصُّدور، مقروءٌ بالألسنة، وصفةُ الله القديمة ليست بمِداد للكاتبين، ولا ألفاظ اللاَّفظين، ومَنْ اعتقد ذلك فقد فارق الدِّين، وخرج عَنِ عقائد المسلمين، بل لا يعتقدُ ذلك إلا جاهلٌ غبى: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحمنُ المُستَعَانُ عَلَى مَا تصِفُون﴾ [الأنبياء: ١١٢].

وليس رَدّ البِدع وإبطالها من باب إثارة الفتن، فإنَّ اللهَ سبحانه أمر العلماء بذلك، وأمرهم ببيان ما عَلمُوه، ومن امتثل أمرَ الله، ونصر دينَ الله، لا يجوز أن يقال: لعنه رسول الله ﷺ.

وأما ما ذُكِر من أمر الاجتهاد، والمذْهب الخامس، فأصولُ الدين ليس فيها مذاهب، فإنَّ الأصلَ واحدٌ، والخِلاف فى الفروع، ومِثْل هذا الكلام فلا أعتمد فيه قولَ من لا يجوز أن يُعتَمدَ قوله، والله أعلم بمن يعْرف دينَه ويقفُ عند حدوده، وبعد ذلك فإنا نعلم أنا من جُمْلة حزْبِ الله، وأنصارِ دينه وجُنْده، وكُلّ جُنْدِىٍّ لا يُخاطر بنفسه فليس بجُندىٍّ.

وأما ما ذُكر من أمر باب السلامة، فنحن تكلمنا فيه بما ظهر لنا، من أن السلطانَ الملكَ العادلَ تغمده الله برحمته، إنما فعل ذلك إعزازًا للدِّين، ونُصرةً للحقِّ، ونحن نحكم بالظاهر، والله يتولَّى السرائر، والحمد لله وحدَه، وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ.

فلما وقف الأشرف على جوابه اشتد غضبه وبعث إليه بالغرس خليل أستاداره، فبلغه غضب السلطان مما وقف من مخاطبته بما لا يعهده من مخاطبة الناس للملوك، مع ما ذكره من مخالفة اعتقاده، وأنه شرط أنه لا يُفتي، ولا يجتمع بأحد، ويلزم بيته، فاظهرَ البشرَ لذلك، وخلع على الغرس سجادة كان يصلى عليها، فبقى على هذا ثلاثة أيام.

واجتمع الجمال الحَصِيرىّ شيخ الحنفية بالسلطان، وحدثه فى أمر ابن عبد السلام، فأوقفه على ورقته، فقال: هذا اعتقاد المسلمين، ومن خالف وذهب إلى إثبات الحرف والصوت فهو حمار، وما زال به حتى بعث إلى الشيخ يحايله، وتقدم إلى الفريقين بالإمساك عن الكلام فى مسألة الكلام وأن لا يُفتى فيها أحدٌ بشىء.

فلما قدم السلطان الملك الكامل من القاهرة إلى دمشق، وكان على رأى الأشعرىّ، أكرم

ابن عبد السلام وطلب منه أن يكتب له ما جرى فى هذه القضية بطوله، فأمر ولده عبد اللطيف بذلك، فكتبه، وأعجب به الكامل، وعاتب أخاه الأشرف على منعه ابن عبد السلام من الكلام فى مسألة الكلام، وعنَّفه على ميله للحنابلة، فأخذ الأشرف فى طلب مصنَّفات الشيخ، وقُرِىء عليه منها كتاب «الملحة فى اعتقاد أهل الحق» وكتاب «مقاصد الصلاة» وكرر قراءته فى يوم واحد ثلاثَ مرَّات، فلما بلغ ذلك ابن عبد السلام قال: لو قرئت «مقاصدُ الصلاة» على بعض مشايخ الزَّوايا أو على متزهد، أو مُريد، أو متصوف مرَّة واحدة فى مجلس، لما أعادها فيه مرَّة أخرى، فاشتهر كتاب «مقاصد الصلاة» بدمشق وكتب منه عدة نسخ.

(٤) جهاده فى الحرب ضد التتار:[1]

تحملت مصر المسئولية المادية والعسكرية فى ردِّ غزوات التتار الذين اجتاحوا سهول الشرق حاملين الخراب معهم والدمار، واستجابت مصر إلى استغاثة أمراء الشام الذين طلبوا النجدة من مصر قلعة العروبة والإسلام.

وكان على عرش مصر آنذاك المنصور على بن المعز أيبك، وهو صغير، ووصيُّه الأمير قطز، وكان عمر الشيخ عز الدين إذ ذاك ثمانين عامًا، ولا يقوم بعمل إلا بالتدريس فى المدرسة الصالحية والإفادة فى البيت، ويُسأل ويُستشار فى الملمات.

وقبل دخول المعركة جمع قطز القضاة والفقهاء والأعيان لمشاورتهم واتخاذ الخطوات اللازمة لمواجهة التتار، فحضروا دار السلطنة بقلعة الجبل، وحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام والقاضى بدر الدين السنجارى قاضى الديار المصرية وغيرهما من كبار العلماء، وجلس الملك المنصور فى العرش.

«فلما تكامل المجلس قام درع، وذكر هيئة سؤال فى أمر هلاكو واستيلائه على البلاد ووصوله إلى حلب، وأن بيت المال خالٍ من الأموال، والسلطان صغير السن، وضاعت مصالح الرعية، وأن الوقت محتاج إلى إقامة سلطان كبير تخشاه الناس ويدفع العدو، وأن

(١) تاريخ مصر لابن إياس: ١/ ٩٥، والنجوم الزاهرة ٧/ ٧٢ .

بيت المال محتاج إلى المساعدة بشيء من أموال الرعية لإقامة الجند، وتجهيزهم للسفر وما يعينهم على ذلك.

وكان المشار إليه فى ذلك المجلس شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، سكت الأمراء والقضاة والعلماء على كلام مدعى السلطان، ولم يجرؤ أحد على أن يعترض على ما عزم عليه الملك الجديد أبو المظفر قطز من فرض ضرائب باهظة على الرعية لتمويل الحرب، وكادت جماهير الشعب أن ترزح وحدها تحت وطأة الضرائب الفادحة وتكابد الشدة والحاجة دون الأعيان وبيت السلطان، فقام الشيخ عز الدين وقال:

«إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط أن لا يبقى فى بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهبية والفضية «والكبابيس المزركشة» وإسقاط السيوف والفضة وغير ذلك. وتبيعوا ما لكم من الحوائض الذهبية والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجند على سلاحه ومركوبه ويتساووا هم والعامة، وأما أخذ الأموال من العامة مع بقاء ما فى أيدى الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا».

وانفضَّ المجلس على كلمته هذه التوجيهية الرشيدة الجريئة، وطبَّق قطز ما قاله الشيخ، وكان لحسن توجيهه وتشجيعه، ودعائه أثر كبير فى نفس السلطان والقواد والجنود وجماهير الشعب، فخاضوا المعركة، وهم واثقون مطمئنون إلى نصر الله الذى أعزَّ جنده ونصرهم فى معركة «عين جالوت» الشهيرة.

شخصيته:

تظهر شخصية سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام فى أبعادها الحقيقية وسماتها الطبيعية من خلال مواقفه الحاسمة الجريئة التى تناولناها فيما سبق.

إن هذه المواقف الخالدة لو دلت على شيء فإنما تدل على قوة شخصية هذا العالم الكبير، الذى منحه الله بجانب علمه الغزير: التقوى والورع، وتوضح هذه المواقف سر هيبته الجذابة التى تفرض احترامها على كل من احتك به وعاشره، كما تفرض احترامها أيضًا على كل قارىء معاصر يقرأ سيرته.

كان الشيخ عز الدين بن عبد السلام مهيبًا جليلاً، مقبول الصورة، يملك قوة التأثير على محدثيه، وقوة الإقناع على مناظريه، وقوة الغلبة على مخالفيه، يملك كل ذلك؛ لأنه يملك قوة الإيمان بالله.

وكان من أبرز سمات شخصية الشيخ عز الدين، الجرأة فى الحق والصلابة فى الدين، وما مواقفه الحاسمة إلا صدى لهذه الشجاعة الطبيعية والصلابة الدينية، ولقد نوَّه مترجموه بذلك كثيرًا:

قال اليافعى:

«وكان عز الدين رحمه الله يصدع بالحق، ويعمل به، متشددًا فى الدين، لا تأخذه فى الله لومة لائم، ولا يخاف سطوة ولا سلطانًا، بل يعمل بما أمر الله»[1].

وقال السبكى:

«.. لم ير مثل نفسه، ولا رأى من رآه مثله علمًا وورعًا وقيامًا فى الحق، وشجاعة وقوة جنان، وسلاطة لسان».[2]

وروى السبكى فى «طبقاته»، قال:[3]

«طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان فى يوم عيد إلى القلعة، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه، ومجلس المملكة، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة، وقد خرج على قومه فى زينته على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذ الأمراء يقبلون الأرض بين يدى السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه:

ـ يا أيوب.. ما حجتك عند الله، إذا قال لك ألم أبوئ لك ملك مصر، ثم تبيح الخمور؟

فقال: هل جرى هذا؟

---

(١) مرآة الجنان: ص ٤، ص ١٥٥ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ٥/ ٨٠ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى: ٥/ ٨١ .

فقال الشيخ: نعم، الحانة الفلانية تباع فيها الخمور، وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة، وأخذ الشيخ يناديه كذلك بأعلى صوته، والعساكر واقفون.

فقال السلطان: يا سيدى.. هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبى، فقال الشيخ: أنت من الذين يقولون: ﴿إنَّا وجدنا آباءنا على أُمَّة﴾.

وهنا اضطر السلطان إلى استجابة مطالب الشيخ، وأصدر مرسومًا بإغلاق تلك الحانة.

وعندما شاع هذا الخبر بين جمهور المسلمين، سأل أحد تلاميذ الشيخ مستفسرًا عن سبب هذه المؤاخذة والانتقاد أمام الملأ فى مثل هذا اليوم العظيم؟

فأجابه الشيخ: «يا بنى رأيته فى تلك العظمة، فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه، فتؤذيه.

فقال التلميذ لأستاذه الشيخ: أما خفته؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه: والله يا بنى.. استحضرت هيبة الله تعالى، فصار السلطان أمامى كالقط».

وفى هذه الكلمات البسيطة المخلصة كشف سلطان العلماء عن سر جرأته فى الحق وشجاعته وهو استحضار هيبة الله وعظمته، الذى يجعل أشداء الملوك كأضعف الدواب أمامه.

ومن الأمثلة على سلاطة لسانه وشجاعته وشدَّته فى الدين قوله للملك الظاهر بيبرس وقد أراد أن يأخذ لنفسه بيعة من الشيخ عز الدين بعد ما نادى نفسه ملكًا لمصر:

قال الشيخ: «يا ركن الدين.. أنا أعرفك مملوك البندقدار»[1].

فما بايعه حتى قامت الشهادة الشرعية على عتقه أولاً.

وكان الشيخ عز الدين مع علمه وفضله وجلالة شأنه لدى السلاطين، متواضعًا مع الناس، متواضعًا مع الله.

---

(١) البندقدار: نسبة إلى البندق، وهى كرات صغيرة تستخدم فى صيد الطيور، وتصنع من الحجارة أو الرصاص، وكان البندقدار يحمل جراوة البندق ـ أى كيسه ـ خلف السلطان أو الأمير.

كان متواضعًا فى مظهره، بعيدًا عن التكلف، لا يتأنق لكاذب الحشمة ومألوف الوقار، حتى لم يكن يتقيد بلبس العمة على عادة العلماء الفقهاء، بل ربما لبس قبع لبادة «طاقية صوف» وكان يحضر المواكب السلطانية به.

ولم يكن هذا التواضع ليجعله ضعيفًا متخاذلاً أمام أقوياء الملوك وأشداء الأمراء، فقد كان ينادى سلاطين مصر بأسمائهم فى مجالسهم العظام، بينما أكثر العلماء يقبلون أيديهم بل الأرض بين أيديهم، ولم يكن يتأول، أو يتعلل، أو يقبل أنصاف الحلول وكم تأول العلماء الفقهاء وتراجعوا وتخاذلوا!

وكان الشيخ عز الدين صادقًا مخلصًا مع الله ومع الناس، ومع السلاطين، فقد كان الناصح الأمين، والمرشد الصادق الذى يوجه جمهور المسلمين وسلاطين الدولة إلى الخير دون مجاملة، أو منافقة، أو مجاراة.

فالشيخ عز الدين هو الذى نصح الأشرف بعد انتهاء فتنة الحنابلة بالمبادرة إلى صلح أخيه الكبير السلطان الكامل، خاصة يتربص بالمسلمين، وانصاع السلطان لهذه اللفتة الصادقة المخلصة، وانصاع أيضًا لنصيحة الشيخ بإغلاق بعض الحانات التى تباع فيها الخمور، وبإلغاء المكوس الجائرة المفروضة على الرعية، وكانت لنصائح الشيخ الصادقة تأثير فى نفس السلطان الذى قدَّره حق القدرْ -بعد المحنة- وأمر بتنفيذ نصائحه فورًا.

والشيخ عز الدين هو الذى نصح الملك قطز، قاهر التتار، بعدم جمع الأموال من الرعية، مادام السلطان والأمراء يملكون أموالاً زائدة عن حاجاتهم، وكان لهذه النصيحة الصادقة المخلصة دور كبير فى إحراز النصر على أعداء الدين.

والشيخ عز الدين هو الذى نصح المسلمين بعدم بيع الأسلحة إلى الصليبيين، وكان الصالح إسماعيل قد سمح لهم بالنزول إلى دمشق وابتياع الأسلحة التى يريدونها، وأصدر الشيخ فتواه إلى المسلمين قائلاً: «يحرم عليكم مبايعتهم لأنكم تتحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين»[1].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٥/ ١٠١ .

وكان الشيخ عز الدين رغم فقره، كثير الصدقات ـ وعلى حد تعبير السبكى ـ أنه ربما قطع من عمامته وأعطى فقيرًا يسأله، إذا لم يجد معه غير عمامته.

حكى أن الشيخ لما كان بدمشق وقع مرة غلاء كبير حتى صارت البساتين تباع بالثمن القليل، فأعطته زوجته مصاغًا لها، وقالت: اشتر لنا به بستانًا، فأخذ ذلك المصاغ وباعه، وتصدق بثمنه، فقالت: يا سيدى.. اشتريت لنا؟ قال: نعم، بستانًا فى الجنة؛ إنى وجدت الناس فى شدة فتصدقت بثمنه، فقالت له: جزاك الله خيرًا»[1].

ولقد اتفق مترجموه على ورعه وزهده، ودلت على ذلك سيرته ومواقفه الحاسمة.

قال الكتبى: «وكان ناسكًا ورعًا»[2].

وقال ابن العماد الحنبلى: «.. هذا مع الزهد والورع»[3].

وكان الشيخ عز الدين مع صلابته وشدته فى أمور الدين، ومع زهده وورعه، لطيف الذوق خفيف الظل، فقد رزق من الرقة النفسية والذوق العالى ما جعله يتذوق الشعر الرقيق ويجيد النثر ويحسن التعبير.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: ٥/ ٨٢، ٨٣ .

(٢) فوات الوفيات: ١/ ٥٩٥ .

(٣) شذرات الذهب: ٥/ ٣٠٢ .

وفاته

عاش الشيخ عز الدين بن عبد السلام ثلاثة وثمانين عامًا، كلها خير وبركة، وعمل وجهاد، وتضحية وبذل، وتدريس وإفتاء وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر.

وعندما لازم الشيخ عز الدين فراشه فى أواخر أيامه، أرسل له الظاهر بيبرس قائلاً: عيِّن مناصبك لمن تريد من أولادك.

فقال الشيخ: ما فيهم من يصلح، وهذه المدرسة الصلاحية للقاضى تاج الدين[1] مع العلم بأن ابنه الشيخ عبد اللطيف كان عالمًا فقيهًا، ولكن سلطان العلماء لم يرد أن يجعل منصب التدريس وراثة لأولاده.

وتوفى الشيخ بعد ظهر يوم السبت التاسع من شهر جمادى الأولى عام ٦٦٠ هـ، ودفن فى اليوم التالى -الأحد- بسفح المقطم، وخرجت أفواج كثيرة من جماهير المسلمين، رجالاً ونساء، شيبًا وشبانًا وأطفالاً، يودعون سلطان العلماء، التقى الورع، ولقد شارك فى جنازته وصلى عليه ملك مصر والشام الظاهر بيبرس.

نقل السبكى عن شرف الدين ابن الشيخ عز الدين عند ذكر وفاته: «فحزن «بيبرس» عليه كثيرًا حتى قال: لا إله إلا الله، ما اتفقت وفاة الشيخ إلا فى دولتى، وحمل نعشه، وحضر دفنه»[2].

ولم ينس أهل دمشق ابنهم الشيخ الذى هاجر من دياره إلى القاهرة متحديًا السلطان الجائر، عاملاً على نشر كلمة الحق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعندما علم أهل دمشق بوفاة الشيخ عز الدين حزنوا، وأخذوا يترحمون عليه، ويذكرون مواقفه الحاسمة، وصلوا على روحه الطاهرة فى الجامع الأموى وجوامع دمشق الأخرى.

وليس أفضل ما أختتم به ترجمة «سلطان العلماء» من الكلمة التاريخية التى قالها الملك

---

(١) فوات الوفيات: ١/ ٥٩٥ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ٥/ ١٠٢ .

الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر والشام، عندما مرت جنازة الشيخ تحت القلعة وشاهد كثرة الخلق الذين معها. . قال بيبرس لبعض خواصه:

«اليوم استقر أمرى فى الملك؛ لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس: اخرجوا عليه لانتزعوا الملك منى»[1].

(٢) طبقات الشافعية الكبرى: ٥/ ٨٤ .

وصف نسخ الكتاب الخطية

اعتمدت فى تحقيق كتاب «مجاز القرآن» على ثلاث نسخ خطية، ووصفها كالتالى :

١ - صورة من نسخة عاطف أفندى فى اسطانبول، ورمزنا لها بالحرف (أ) وهى تحت رقم (٥٩) وتقع فى (١٤٢) ورقة، وهى مكتوبة بخط نسخ واضح. وعنوانها هو«الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز» .

٢ - صورة مخطوط السليمانية فى اسطانبول تحت رقم (١٠١٦)، ورمزنا لها بالحرف (ب)، وهى نسخة جيدة كاملة، وناسخها مجهول ، وكتبت هذه النسخة سنة ٧٠٩ هـ، وتقع هذه النسخة فى (١٦٣) ورقة .

٣ - صورة من نسخة معهد المخطوطات العربية فى القاهرة، برقم (٧٤)، وتقع فى (١٤٥) ورقة، ورمزنا لها بالحرف (جـ)، وليس بها ذكر للناسخ ولا لتاريخ النسخ.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن هناك نقص وفراغات فى السياق فى بعض المواضع من هذه النسخ التى تحت أيدينا، والتى سنشير إليها فى مواضعها من التحقيق .

عنوان الكتاب وصحة نسبته للعز بن عبد السلام

أشار مترجمو العز بن عبد السلام - السبكى، وابن الملقن، وابن قاضى شهبة، والسيوطى- إلى أن عنوان هذا الكتاب «مجاز القرآن» . وهو عند الداوودى «كتاب المجاز»، ويسميه الزركشى فى كتابه «البرهان» باسم «المجاز» .

ويشير شهاب الدين الخفاجى فى كتابه «طراز المجالس» إليه باسم «مجاز القرآن» ، وأحياناً يشير إليه باسم «الإشارة إلى الإيجاز».

ومما تقدم فالمرجح أن العنوان الأصلى لهذا الكتاب هو « مجاز القرآن»، وهو الذى اخترناه.

منهج التحقيق

لقد نهجت فى تحقيق هذا الكتاب نهجًا علميًا يقوم على النحو التالى:

١ - شرعت فى نسخ الكتاب، وراعيت فى النسخ قواعد الرسم الإملائى بعد تقويم النص ورد المحرف إلى أصله، وذلك بالرجوع إلى غالب المصادر المتاحة، ولم أشر إلى حالات التصحيف والتحريف الواردة فى النُّسَخ.

٢ - عند اقتضاء السياق فى بعض المواطن -وهى نادرة- إضافة لكلمة أو عنوان إتمامًا للفائدة، أو إظهارًا للمعنى، أو استكمالاً لسقط، أضفتها إلى الأصل بين معقوفين [ ] ولم أشر إلى ذلك فى الهامش اكتفاءً بهذا التنويه.

٣ - عزوت الآيات القرآنية الكريمة إلى سورها، وبينت أرقامها، وخرجت الأحاديث النبوية الشريفة.

٤ - عُنيت بالتعريف بالأعلام الواردة أسماؤهم فى الكتاب حسبما اقتضت الحاجة إلى ذلك.

٥ - عُنيت بضبط الآيات القرآنية والشعر وكل ما يحتمل اللبس.

٦ - أحلت كل حديث أو ترجمة أو شعر إلى مصادره الأصلية، مكتفيًا بذكر اسم الكتاب دون ذكر اسم صاحبه، أو طبعته تاركًا ذلك للفهارس.

٧ - وضعت ترجمة وافية لسلطان العلماء .

٨ - وضعت كشافات تحليلية متنوعة للكتاب وهى:

أ ـ كشاف للأحاديث الشريفة.

ب ـ كشاف للأشعار.

جـ ـ كشاف أنصاف الأبيات .

وفى الختام لا يسعنى إلا أن أتقدم بالشكر لكل من ساعد فى خروج هذا الكتاب بهذه الصورة، والتى أعتذر مسبقًا عما قد يشوبها من خلل وقصور، بما يعرفه روَّاد هذا الفن الشائك من الصعوبات والمشقات التى يواجهها المحقق، وقد قال الشاعر:

لا يعرف الشوق إلا من يُكابدُهُ ولا الصبابة إلا من يُعانيها

القاهرة فى الاثنين

٣١ / ٨ / ١٩٩٨

دكتور

مصطفى محمد حسين الذهبى